الفصل الأول

تأصيل علم التاريخ

مقدمة الفصل الأول

فى هذه الدراسة التاريخية برزت الرؤية الإسلامية للعلوم الاجتماعية بوضوح شديد. إن هذه العلوم والتاريخ على رأسها، أدوات فكرية لبلوغ الحقائق. ومرد ذلك إلى أن الإسلام نفسه هو دين الحق الذى يعادى الباطل فى كل المجالات العلمية والفكرية. والله تعالى هو القائل: ﴿ **وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا** ﴾ [الإسراء: ٨١] فالإسلام هو الحق. ودعوته هى دعوة الحق، و﴿ **لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ** ﴾ [الرعد: ١٤] والقرآن نزل بالحق ﴿ **وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ** ﴾

[الإسراء: ١٠٥]

ولهذا وجدنا المؤرخ المسلم لا ينشد سوى الحق، ولا يبتغى غير الحقيقة، ووجدناه ينفر من الباطل والمبطلين ومن الزيف والمزيفين.

وكانت هذه الرؤية الراقية لعلم التاريخ جزءاً من أصالة هذا العلم. وقد أبرزْتُ هذا الجانب من الأصالة فى هذه الدراسة قدر طاقتى، وفى مقارنات علمية بين المؤرخين المسلمين والمؤرخين المسيحيين، أساسها شهادات لمؤرخين مسلمين وغير مسلمين.

وبرزت أصالة التاريخ الإسلامى فى القرآن الكريم ذاته، حيث وجدنا التاريخ يبدأ من يوم خَلْق الله تعالى العرش، والقلم، والسماوات والأرض؛ ووجدنا قصة خلق أبينا آدم عليه السلام وزوجه، وقصص الأنبياء العظام من بعده، عليهم السلام. ولهذا بدأ المؤرخون المسلمون مؤلفاتهم من تلك اللحظة البعيدة ـ لحظة خَلْق العرش والقلم.

وأما إسهامات المؤرخين المسلمين فقد تمثلت فى الفصول الرائعة التى كتبوها

عن العصور التى عاشوا فيها، وشهدوا أحداثها، بل شاركوا أحياناً فى صنعها، إلى جانب فصول السيرة النبوية العطرة وتاريخ الراشدين رضى الله عنهم[1].

وقد عَرَضْتُ لهذه الإسهامات وتلك الأصالة، والرؤية الإسلامية، لدى سبعة من كبار المؤرخين المسلمين. ولم يكن من المستطاع دراسة جميع المؤلفات التاريخية لجميع المؤرخين المسلمين، لأن ذلك يحتاج إلى سِفْرٍ ضخم. والله تعالى أسأل أن يجعل من هذه الدراسة سبباً لغرس الثقة فى تاريخنا العظيم.

* * *

(١) مثال ذلك ابن خلدون، وصلاته بالأحداث الرهيبة التي وقعت في دمشق على أيدي التتار، واحتياله على السلطان "تمُر" لكي يخرج من هناك ويعود إلى مصر (انظر كتابه: التعريف بابن خلدون؛ ص ٣٧٢ وما بعدها).

التاريخ فى القرآن الكريم

كما أشرت فى المقدمة، يبدأ التاريخ فى القرآن الكريم من: خَلْق العرش والقلم، والسماوات والأرض. ويحفل القرآن بالفصول التاريخية. فأخبار الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم تستغرق شطراً واسعاً من السور القرآنية. ويُسمَّى عدد من السور بأسماء الأنبياء: يونس وهود ويوسف وإبراهيم ومحمد صلى الله عليهم وسلم.

ويسجل القرآن الكريم قصة خَلْق آدم من طين، وإهباطه إلى الأرض، بعد أن عصى ربه وأكل من الشجرة التى نهاه ربه عن الأكل منها.

وقصَّ القرآن الكريم قصة ابنى آدم، والقربان الذى قدماه، فتُقبِّلَ من أحدهما ولم يتقبل من الآخر.

ووصف القرآن الكريم مشهد سجود الملائكة لآدم تكريماً لا عبادة، وكيف عصى إبليس أمر الله تعالى له بالسجود.

ووردت قصة سيدنا نوح عليه السلام مع قومه الذين نفروا من دعوته وسخروا منه، وكيف صنع الفلك وركبها مع القلة المؤمنة، لينجو من الطوفان.

ويقص القرآن الكريم قصة سيدنا موسى عليه السلام منذ أن وُلد، وكيف نجَّاه الله تعالى من قبضة فرعون. وإحدى السور القرآنية تسمَّى سورة القصص، جاءت فيها قصة موسى وأمه وأخته، ونجاته من بطش فرعون، وأسفاره العديدة، وزواجه فى "مَدْيَن"، ومكوثه هناك عشر سنوات، وتفاصيل أخرى كثيرة.

وقصة سيدنا يوسف عليه السلام جاء بها التنزيل فى سورة باسم "يوسف". وهى تسجل أنباء ذلك النبى الكريم منذ طفولته مع إخوته، وكيف دبروا له مكيدة للخلاص منه، وكيف نجاه الله تعالى، ومكَّن له فى أرض مصر، وجعله موضع ثقة ملكها. وذلك تاريخ رائع، سداه الصدق، ولُحْمته الروح الإيمانية.

ومن البدهى أن يتحدث القرآن الكريم عن خاتم الأنبياء سيدنا محمد ابن عبدالله ﷺ. وقد خاطبه الله تعالى بقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ [الأنفال: ٦٥]؛ وتحدثت عنه الآيات الكريمة بوصفه الرسول والنبى، كقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقوله تعالى: ﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ ﴾ [التوبة: ١١٧] ولهذا قلَّ ورود الاسم العلم "محمد" إذا قُورن بأسماء الأنبياء الآخرين.

وفى القرآن الكريم تاريخ جهاد النبى ﷺ، وأخبار يوم بدر، وأُحد، والخندق، وفتح مكة، وحُنَيْن. وكانت هذه المواد التاريخية الأساس الذى شيدت عليه السيرة المطهرة. بل إن بعض الأحداث التى وقعت فى بيت النبوة المحمدية سُجلت فى سورة التحريم وفى غيرها أيضاً.

وصفوة القول – إذن – إن التاريخ الإسلامى ضارب بجذوره فى أعماق الوجود؛ وصَدْرُ هذا التاريخ مُسَطَّر فى آيات التنزيل. فهو تاريخ أصيل، عريق، وإن تأخر تحديد البداية الزمنية لتسجيل الأحداث والوقائع إلى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

تأسيس التاريخ الهجرى:

فبعد إنشاء الدولة الإسلامية الأولى وتشعب معاملاتها الرسمية والشعبية كان لابد من تأسيس تاريخ إسلامى لضبطها. قال ابن كثير: "قال الواقدى: فى ربيع الأول من هذه السنة – أعنى سنة ست عشرة – كتب عمر بن الخطاب التاريخ، وهو أول من كتبه" قلت (أى ابن كثير): قد ذكرنا سببه فى سيرة عمر، وذلك أنه رُفع إلى عمر صَكٌ مكتوب لرجل على آخر بدَيْن يحل عليه فى شعبان، فقال: أى شعبان؟ أمن هذه السنة أم التى قبلها أم التى بعدها؟ ثم جمع الناس فقال: ضَعوا للناس شيئاً يعرفون فيه حلول دُيونهم. فيقال إن بعضهم أراد أن يؤرخوا كما تؤرخ الفرس بملوكهم، كلما هلك ملك أرَّخوا من تاريخ ولاية الذى بعده، فكرهوا ذلك. ومنهم من قال: أرِّخوا بتاريخ الروم من زمان إسكندر، فكرهوا ذلك، ولطوله أيضاً. وقال قائلون: أرِّخوا من مولد رسول الله ﷺ. وقال آخرون من مَبْعَثِه عليه السلام. وأشار

على بن أبى طالب وآخرون بان يُؤرخ من هجرته من مكة إلى المدينة، لظهوره لكل أحد، فإنه أظهر من المولد والمبعث، فاستحسن ذلك عمر والصحابة، فامر عمر أن يؤرخ من هجرة رسول الله ﷺ، وأرَّخوا من أول تلك السنة من مُحرَّمها"(١).

ونلاحظ هنا أن عمر والصحابة لم يرفضوا التاريخ الفارسى والرومى بغير سبب معقول، بل لعدم صلاحيته. ولم تظهر لدى الجميع حساسية من الاقتباس من الآخرين.

وفى بحث الموضوع التزم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب والصحابة بمبدأ الشورى. وأثبتت القرون من بعدهم أنهم كانوا على صواب. ولم يحاول مسلم تغيير التاريخ الهجرى إلا شاذ، وقد فشلت تلك المحاولة وحُوصرت وعُزلت عزلاً تامًا. وبنهاية الطاغية الذى ابتدعها سوف تذهب هباءً، ليظل التاريخ الهجرى مفخرة للمسلمين، وعنصراً مهمًا فى كيان هويتهم.

تأسيس التاريخ الهجرى فى رواية الجبرتى

وقال الجبرتى رحمه الله إن أول واضع للتاريخ فى الإسلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وذلك حين كتب أبو موسى الأشعرى إلى عمر أنه يأتينا من قِبَل أمير المؤمنين كتب لا ندرى على أيها نعمل! فقد قرأنا صكًّا محله شعبان، فما ندرى أى الشعبانين، أهو الماضى أم القابل؟ وقيل: رُفع لعمر صك محله شعبان فقال: أى شعبان هذا؟ أهو الذى نحن فيه أو الذى هو آت؟ ثم جمع وجوه الصحابة رضى الله عنهم وقال: إن الأموال قد كثرت، وما قسمناه غير مؤقت (يعنى غير محدد وقته أو تاريخه)، فكيف التوصل إلى ما يضبط به ذلك؟ فقال له الهرمزان -وهو ملك الأهواز، وقد أُسر عند فتوح فارس وحُمل إلى عمر وأسلم على يديه - إن للعجم حساباً يسمونه "ماه روز"، ويسندونه إلى مَن غلب عليهم من الأكاسرة. فعَرَّبوا لفظة "ماه روز" (يُمَوْرِخ) ومصدره التاريخ، واستعملوه فى وجوه التصريف. ثم شرح لهم الهرمزان كيفية استعمال ذلك. فقال لهم عمر: ضَعوا للناس تاريخاً يتعاملون عليه،

---

(١) ابن كثير؛ البداية والنهاية؛ جـ٧ ص ٧٠ .

وتصير أوقاتهم فيما يتعاطونه من المعاملات مضبوطة. فقال له بعض من حضر من مسلمي اليهود: إن لنا حساباً مثله مسنداً إلى الإسكندر. فما ارتضاه الآخرون لما فيه من الطول. وقال قوم: نكتب على تاريخ الفرس. قيل: إن تواريخهم ليست مسندة إلى مبدأ معين، بل كلما قام منهم ملك ابتدأوا التاريخ من لدن قيامه وطرحوا ما قبله. فاتفقوا (أى الصحابة وعمر على رأسهم) على أن يجعلوا تاريخ دولة الإسلام من لدن هجرة النبى ﷺ، لأن وقت الهجرة لم يختلف فيه أحد، بخلاف وقت ولادته ووقت مبعثه ﷺ(١).

ومن الجلى فى هذا الخبر أن الضرورات الحياتية فى الدولة الإسلامية الناشئة المتنامية هى التى تطلبت وضع البداية الزمنية للتاريخ لتنظيم المعاملات والمراسلات بين الناس وبين أمير المؤمنين وعماله على الأقاليم، وضبط الشئون المالية فى الدولة، بعد أن كثرت الأموال باتساع الفتوحات وامتدادها إلى اليمن وفارس والشام ومصر. واستشار "عمر" الصحابة رضى الله عنهم، وسمع من مسلمة بنى إسرائيل ومن الهرمزان. وبعد بحث الموضوع اتفق الصحابة (مع عمر) على أن تكون بداية التاريخ الإسلامى الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة، لأن وقتها ثابت معروف بلا خلاف. ولذلك سُمِّى تاريخ الإسلام: التاريخ الهجرى.

ومنذ ذلك الوقت حرص المسلمون على تدوين الأحداث والأخبار بدقة وموضوعية وحياد ونزاهة. وتلك هى الخصائص التى يفرضها الإسلام، وهى التى تشكل الرؤية الإسلامية لعلم التاريخ وللعلوم الاجتماعية كلها.

منهج الإسناد:

ومن أجل توثيق الحقائق حرص المؤرخون المسلمون -كما حرص المحدِّثون - على التأكد من صدق الرواة، ومن اتصال بعضهم ببعض، حتى المصدر الأعلى للخبر. وسُمِّى هذا المنهج "الإسناد"، كما سُمِّى البحث فى صدق الرواة وعدالتهم "علم الجرح والتعديل" ولهذا تم فحص حالة كل من قال "قال رسول الله ﷺ". واتبع

(١) تاريخ الجبرتي؛ طبع دار الجيل؛ بيروت؛ ص ٦، ٧ (لا توجد بيانات أخرى).

المؤرخون المنهج نفسه بقدر طاقتهم، وكلما أمكن ذلك. فالمحدِّث المسلم والمؤرخ المسلم، يبحثان عن الحقائق، امتثالاً لتعاليم الإسلام، دين الحق الذى لا يطيق الباطل والتزوير فى أى ناحية من نواحى الحياة.

قال عبدالله بن المبارك رضى الله عنه: "الإسناد من الدين. ولولا الإسناد لَقالَ مَنْ شاء ما شاء." وطلبُ العلو فيه سُنة أيضاً. ولذلك استُحبت الرحلة فيه"(١).

وقد رحل فى طلب الإسناد غيرُ واحد من الصحابة. ويُذكر أن جابر بن عبد الله سار إلى مصر ليسأل "عقبة بن عامر" عن حديث واحد، ثم عاد إلى المدينة دون أن يصنع شيئاً سوى ذلك. وعن سعيد بن المسيب رحمه الله قال: إن كنتُ لأسافر مسيرة الأيام والليالى فى (طلب) الحديث الواحد"(٢).

فهؤلاء العلماء حرصوا على معرفة أحاديث الرسول ﷺ. كما حرصوا على تلقيها من أقرب الناس إليه من الصحابة الذين سمعوها منه، ولم ينقلها إليهم راوٍ. وهذا هو الإسناد العالى، الذى يضمن صحة الحديث. وهم فى سبيل ذلك يسافرون الأيام والليالى ويقاسون المشقة الشديدة، فى السهل والجبل، والليل والنهار والحر والبرد.

وهكذا ورث المسلمون الحرص على الحقيقة، نقية من كل شائبة، من مصدرها الأول. فإذا اضطروا إلى نقلها عن راوٍ نزلت درجة وثاقتها على الرغم من حرصهم على التأكد من عدالة الراوى وضبطه. وقد أنشأوا علم الجرح والتعديل لمعرفة العدالة والضبط واتصال الرواة فى كل مَنْ قال "قال رسول الله ﷺ"، كما ذكرنا قبل قليل.

وشاعت هذه الروح العلمية العظيمة فى كل المجالات العلمية، ووجدنا بعض كتب التاريخ تصطنع المنهج نفسه الذى اتبعه علماء الحديث، طلباً للحقيقة التاريخية، كسيرة ابن هشام و"طبقات" ابن سعد، وتاريخ الأمم والملوك للطبرى.

وبعد تأسيس التاريخ الهجرى انطلقت الأقلام العديدة فى كتابة التاريخ المجيد لأمتنا.

---

(١) مقدمة ابن الصلاح؛ ص ٣٧٨، ٣٧٩.
(٢) محاسن البلقينى، على هامش مقدمة ابن الصلاح، ص ٣٧٩.

ومن أشهر المؤرخين عند العرب "أبو عبيدة" الذى نُسبَ إليه أنه كتب مائتى بحث عن القبائل وبطونها وظهور الإسلام، وفتوحات الأقاليم، وأخبار الجماعات، مثل قضاة البصرة والخوارج والموالى. ويعد "المسعودى" من أكبر مؤرخى العرب (المسلمين)، وإن لم يصلنا من كتبه الكثيرة إلا نتف. وتبرز فى كتابته الرغبة فى المعرفة لذاتها. وكتب محمد بن جرير الطبرى "تاريخ الرسل والملوك"(١). وقصد فى هذا الكتاب إلى إتمام تفسيره للقرآن ... وكتب ابن عساكر "تاريخ دمشق" فى مائة مجلد. والتراجم عند العرب فى غاية الثراء، مثل كتاب أبى حيان التوحيدى عن الوزيرين ابن العميد الثانى والصاحب بن عباد. وهناك كتاب "الأغانى" لأبى الفرج. و"معجم البلدان" لياقوت. و"فتوح البلدان" للبلاذرى. و"تاج الملة" لإبراهيم الصافى. و"الفتح القسى فى الفتح القدسى" لعماد الدين الأصبهانى، وفيه يؤرخ استرجاع صلاح الدين لبيت المقدس. وكتب ابن عبدالحكيم أقدم تاريخ لمصر الإسلامية، وهو "تاريخ مصر وفتوح المغرب". وكتب ابن مسكويه كتاب "تجارب الأمم". وألّف عز الدين بن الأثير تاريخ "الكامل" المشهور، واتسم بأسلوب رشيق، وأدخل الحوادث والروايات التى حشدها فى إطار من الحوليات. وقرَّبَ المماليك فى مصر عبدالرحمن بن خلدون الذى يُعد من أكبر المؤرخين فى العالم. وتعد "مقدمته" وكتابه "العبر" من أروع كتب التاريخ، وقد بناها على ملاحظاته فيما يحدث من الوقائع. ويذهب إلى وجود اطراد فى السلوك الإنسانى شبيه باطراد الطبيعة. وتقى الدين المقريزى صاحب كتاب "الخطط" وهو من أشهر الكتب التاريخية فى تاريخ مصر الإسلامية. وكتب ابن إياس تاريخاً لمصر إلى الفتح الإسلامى. وأرَّخ أبو المحاسن ابن تغرى بردى لمصر من الفتح الإسلامى إلى العصر المملوكى .. وفى العصور الحديثة ظهر كتاب "عجائب الآثار فى التراجم والأخبار" لعبد الرحمن الجبرتى، ويؤرخ لمصر من أيام على بك الكبير حتى قبيل وفاة الجبرتى نفسه"(٢).

* * *

(١) ويسمى تاريخ الأمم والملوك أيضاً.

(٢) راجع: الموسوعة العربية الميسرة؛ جـ ١ ص ٤٨١.

نماذج من مؤلفات المؤرخين المسلمين

● الأنمـــوذج الأول:

السيرة النبوية العطرة لابن هشام :

سوف أعرض فيما يلى إسهامات بعض المؤرخين المسلمين وأصالتهم، وأبين – بعون الله تعالى – التزامهم بالرؤية الإسلامية للعلوم الاجتماعية، من خلال سبعة نماذج من المؤلفات التاريخية. وسيرة ابن هشام هى الأنموذج الأول.

إن أول من كتب فى السيرة النبوية العطرة هو "ابن شَرِيَّةَ الجرهمى" الذى استقدمه معاوية بن أبى سفيان من صنعاء ليكتب كتاباً فى التاريخ فكتب له كتاب: "الملوك وأخبار الماضين". وبعده كثر المؤرخون الذين كتبوا فى سيرة النبى ﷺ وأولهم عُروة بن الزبير بن العوام، ثم أبان بن عثمان بن عفان المتوفى سنة ١٠٥ هـ، ثم وهب ابن منبه المتوفى سنة ١١٠ هـ، وغيرهم[١].

شيخ كتاب السيرة:

ثم جاء دور شيخ رجال السيرة محمد بن إسحاق (المتوفى سنة ١٥٢ هـ) ثم زياد البَكائى المتوفى سنة ١٨٣ هـ، ثم الواقدى صاحب المغازى المتوفى سنة ٢٠٧هـ، ومحمد بن سعد صاحب "الطبقات الكبرى" المتوفى سنة ٢٣٠ هـ. ثم كتبت السيرة المطهرة عشرات المرات عبر القرون، مع اختلافات يسيرة، ملخصة وموسعة، نثراً وشعراً.

وكتب ابن إسحاق السيرة فى ثلاثة أجزاء: المبتدأ، والمبعث، والمغازى. وفى هذا الجزء الثالث تناول حياة النبى فى المدينة، ملتزماً منهج الإسناد والترتيب الزمنى.

---

(١) سيرة ابن هشام؛ المقدمة للمحققين الأساتذة مصطفى السقا وإبراهيم الإبيارى، وعبد الحفيظ شلبى؛ نشر مكتبة الحلبى؛ بمصر؛ سنة ١٣٧٥ هـ – ١٩٥٥م. ط ٣ ص ٥.

ابن هشام:

وجمع ابن هشام سيرة ابن إسحاق ودوَّنها، وحرر ما كتبه ابن إسحاق، واختصر بعضه، ونَقَدَ بعضَه، وأضاف روايات أخرى لم يوردها ابن إسحاق، كما أضاف تكملة لها. قال ابن هشام: "وأنا إن شاء الله مبتدئ هذا الكتاب بذكر إسماعيل ابن إبراهيم ومن ولدَ رسولَ الله ﷺ من ولده ... وتارك ذكر غيرهم من ولد إسماعيل .. وتارك بعض ما يذكره ابن إسحاق في هذا الكتاب مما ليس لرسول الله ﷺ فيه ذكر، ولا نزل فيه من القرآن شيء، وليس سبباً لشيء من هذا الكتاب، ولا تفسيراً له، ولا شاهداً عليه، لما ذكرتُ من الاختصار، وأشعاراً ذَكَرها لم أرَ أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها، وبعضها يشنُعُ الحديث به، وبعضٌ يسوء بعضَ الناس ذِكْرُه، وبعضٌ لم يقر لنا البَكَّائيُّ بروايته، ومستقصٍ إن شاء الله تعالى ما سوى ذلك منه بمبلغ الرواية له والعلم به"(١).

وهذا مسلك أخلاقي وعلمي رفيع.

ومن الجلي أنه أراد التركيز في السيرة العطرة، فترك مالا يتصل بها. واستبعد الشعر المشكوك فيه، والمشنَّع به، أو الذي يسيئ إلى بعض الناس. ثم أضاف روايات أخرى، بُغْيةَ التوثيق الأقوى. وهذا كله يتسق مع الرؤية الإسلامية للتاريخ كعلم ينشد الحقائق. واحتراماً لهذه الرؤية لم يَدَّع لنفسه عملاً قام به ابن إسحاق أو غيره، فتجده يذكر القارئ دائماً بمصدر الخبر الذي نقل عنه، وابن إسحاق أكثرهم ذِكْراً. وبهذا الجهد استحق ابن هشام أن يقتسم المجد مع أستاذه ابن إسحاق بوصفهما صاحبي هذه السيرة العطرة، أو هذا الإسهام التاريخي الكبير والرائد.

وقد اشتهر هذا العمل التاريخي باسم "سيرة ابن هشام"؛ لكن اسم ابن إسحاق لم يُنس ولم يُغفل، بفضل تلميذه ابن هشام الذي داوم ذكره على امتداد الكتاب، بعد الاعتراف الذي سجله في بداية الكتاب(٢).

---

(١) سيرة ابن هشام؛ المقدمة للمحققين الأساتذة مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري، وعبدالحفيظ شلبي، نشر مكتبة الحلبي، بمصر، سنة ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥م ط ٣ من ص ٥ إلى ١٢.

(٢) السيرة؛ الجزء الأول؛ ص ٤.

وهذه هى الأمانة العلمية التى التزمها المؤرخون المسلمون ولم ينتهكها إلا شاذ غير جدير بأخلاق العلماء.

إسهام عظيم:

وبهذا العمل الموسوعى حفظ لنا ابن اسحاق وابن هشام صورة حية ناطقة، صادقة، لحياة نبينا ﷺ، تلك الحياة الحافلة بجلائل الأمور، منذ لحظة ميلاده ﷺ إلى يوم أن لحق بالرفيق الأعلى محاطاً بكوكبة مضيئة من الرجال العظام، الذين أسسوا دولة، وأقاموا أمة، وبذلوا فى سبيل ذلك أموالهم وأنفسهم. وقدم لنا ابن إسحاق وابن هشام كل التفاصيل الدقيقة لحياة النبى الكريم بما فى ذلك عدد أولاده وزوجاته وسيوفه حتى لكأن القارئ يعيش فى كنفه ويشاركه طعامه وشرابه، ويمشى إلى جنبه، ويصلى وراءه، ويجاهد معه، ويسمع صهيل خيله، ويبكى معه ويفرح معه ويتعلم منه الصبر والمصابرة، والجهاد والتضحية، والزهد والورع.

فالسيرة ليست مجرد تاريخ. كلا، إنها حياة نابضة ومدرسة عامرة، يدخلها المسلم تلميذاً ويخرج منها عالماً، ويقرأها الرجل ضعيف الإيمان فيتخرج منها على يقين. ويتناولها الكافر للتسلية أو المعرفة فيخرج منها هاتفاً باسم محمد والإسلام.

لهذا أقول إن السيرة النبوية التى كتبها ابن اسحاق ومحَّصها ابن هشام تمثل أعظم إسهام إسلامى فى مجال التاريخ، وفى مجال التربية والتعليم والدعوة أيضاً.

ولنا نحن المسلمين أن نعتز بهذا الإنجاز العظيم المبكر الذى قام به رجلان من علماء الإسلام الكبار، وعلينا أن نواصل الاستفادة منه كما استفاد سلفنا على امتداد القرون، فى مناهج التعليم ووسائل الإعلام والفنون والآداب.

وبعد أن تحولت القبائل العربية من مجرد قبائل متناحرة إلى أمة متحدة، واتسعت رقعتها بفضل الفتوحات المتوالية، احتاج المسلمون إلى إنشاء الدواوين، أو الإدارات المختصة، وإلى تسجيل نظم الجيش والمالية، فأسسوا التاريخ الهجرى لمواجهة احتياجات الأمة الجديدة الكبيرة، كما ذكرت منذ قليل.

* * *

● الأنموذج الثاني:

الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد:

وهو: أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهري. كان يكتب للواقدي، المؤرخ الكبير صاحب المؤلفات العديدة في السيرة النبوية وتاريخ العرب(١).

وقد وصف الشيخ حسن مأمون كتاب "طبقات ابن سعد" فقال إنه: "موسوعة تاريخية عظيمة، ومرجع للمحدِّثين والإخباريين والنسَّابين، ومصدر من المصادر القديمة (القيمة) المهمة لسيرة رسول الله ﷺ، وأحاديثه، وأخبار الصحابة وتاريخهم، وأحوال العرب وعاداتهم حتى عصر أبي عبد الله محمد بن سعد صاحب الطبقات الكبرى." وكتابه: "عمل ضخم متنوع الثقافة شمل أكثر ما كتبه الواقدي الذي قيل عنه: "محمد بن عمر الواقدي عالم دهره."

"وقد رتب (الطبقات) بين الصحابة – رضي الله عنهم – على أساس السبق إلى الإسلام، وحضور غزوة بدر الكبرى... بدأ بالمهاجرين البدريين ثم بالأنصار البدريين، ثم بمن سبق إلى الإسلام ولم يشهد بدراً، ولكنه هاجر إلى الحبشة أو شهد غزوة أُحد... ثم من أسلم قبل فتح مكة."

"واعتمد عليه – أي على كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد – كثير من كُتَّاب التاريخ العربي والإسلامي وكتَّاب السيرة ورجال الحديث."

"وابن سعد في طبقاته ليس راوياً لحادثة مؤرخاً لها فحسب، ولكنه ناقد كذلك"(٢).

منهج ابن سعد لفرز الخبر الحقيقي من الخبر الزائف: الإسناد:

وابن سعد – مثله مثل المؤرخين والمحدِّثين المسلمين الرواد – يستخدم "الإسناد"

---

(١) ولد الواقدي سنة ١٣٠ هـ؛ وتوفي سنة ٢٠٧هـ؛ وتوفي ابن سعد سنة ٢٣٠ هـ، انظر: مقدمة محقق كتاب "طبقات ابن سعد" ص ٤، ص ٨، ص ١٠.

(٢) نفسه؛ ص ١٣ – ١٥.

لضمان بلوغ الحقيقة. لكنه للأسف أفسح مجالاً للرواية عن مسلمة بنى إسرائيل فى مسائل تخص خَلْق آدم عليه السلام ووصْفه، ووفاته؛ وهى إسرائيليات لا يمكن أن يركن إليها. والإسناد فيها لا يكفى لضمان الصحة، ولابد من التمحيص باستخدام منهج علماء الحديث فى الجرح والتعديل، والاحتكام إلى المبادئ الشرعية، والبدهيات العقلية.

وابن سعد معذور، لأنه ألف كتابه فى بداية القرن الثالث الهجرى، ولم تكن قواعد الجرح والتعديل قد بُلورت كما نجدها لدى الإمام الغزالى ولدى الشاطبى وابن خلدون فيما بعد.

ويروى ابن سعد أخباراً عن رواة لا يمكن أن يكونوا مصدراً لها. من ذلك مثلاً قوله: " أخبرنا قبيصة بن عقبة السُّوائى، حدثنا سفيان بن سعيد الثورى، عن أبيه عن عكرمة، قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام"(١). فمن أين لعكرمة أن يعرف هذا الخبر؟! وفيما يتعلق بأولاد نوح ونسلهم يذكر خبراً عن سعيد ابن المسيب. ويثور السؤال نفسه: من أين لسعيد بن المسيب أن يعرف أن العرب والفرس والروم هم أولاد سام، وأن السودان والبربر والقبط أولاد حام، وأن الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج أولاد يافث؟!

الجواب دون تردد: إنه لا يمكن أن يعرف ذلك معرفة علمية يوثق بها.

السيرة العطرة:

يعرض ابن سعد السيرة كحياة بديعة، حارة، متدفقة، ماديًّا وروحيًّا، فى أشخاص تنبض فى صدورهم القلوب، وتشع من أجسادهم حرارة الإيمان، ومن أرواحهم نور اليقين فى سبعمائة صفحة متوالية من كتابه - المطبوع - الكبير.

---

(١) الطبقات الكبرى؛ جـ ١ ص ٥٦.

ويوسع ابن سعد المكان لكل صغيرة وكبيرة فى سيرة المصطفى ﷺ ، ابتداء من ميلاده، ونسبه، حتى المشط الذى كان يمشط به شعره الشريف، ومكحلته، ومرآته، وقَدَحه، وسيوفه، ودرعه، وترْسه، وقسِّيه، وخَيْله، وإبله، وأغنامه، وخدمه، ومواليه. فيضع أمامنا صورة كاملة، شاملة، لا تنقصها رتوش أو ظلال.

وينتقل من السيرة إلى طبقات البدريين، ثم المهاجرين والأنصار، والتابعين. وينهى كتابه بجزء عن كبيرات نساء المسلمين من المهاجرات والأنصاريات وممن رَوَيْن الأحاديث عن رسول الله ﷺ(١).

وإسهام ابن سعد فى مجال التاريخ كبير، فقد ترك للمسلمين والعالم سجلاً حافلاً لحياة نبى عظيم، صنع أمة، وأنشأ دولة لم تبلغ من العُمر مائة عام حتى صارت أقوى دولة فى العالم فى عصرها.

ولم يقف ابن سعد عند حدود الغزوات والفتوحات، ولكنه صوَّر لنا حياة النبى ﷺ من كل جوانبها الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، والخاصة. وكانت الحقائق التى سجلها ووثقها هى السلاح الذى نسف كل الافتراءات التى حاول الأعداء القدامى والمعاصرون إلصاقها بشخص النبى ﷺ أو بصحابته رضى الله عنهم. ولم تجد سيرة نبى من الأنبياء مثل هذه العناية الواسعة الدقيقة التى تجدها فى "الطبقات الكبرى".

أمثلة من رواياته وأخباره:

أورد ابن سعد الروايات العديدة عن نسب رسول الله ﷺ. ثم أورد رواية عن ابن عباس "أن النبى عليه السلام لم يجاوز فى نسبه معد بن عدنان بن أدد، ثم كان يمسك ويقول: كذب النسَّابون. قال الله عز وجل: ﴿ **وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا** ﴾ [الفرقان: ٣٨](١).

---

(١) انظر مقدمة المحقق؛ ص ١٠، ١١.
(٢) الطبقات الكبرى؛ جـ ١ ص ٨٦.

ثم أورد روايات أخرى من طُرق أخرى، ثم قال إن: "الأمر عندنا على الانتهاء إلى معد بن عدنان، ثم الإمساك عما وراء ذلك إلى إسماعيل بن إبراهيم"(١) وهذا التحفظ وراءه الخوف من الخطأ فى نسب رسول الله ﷺ، ومخالفة السُّنة حيث توقف الرسول نفسه عند معد بن عدنان. وكان بعض الرواة من مسلمة بنى إسرائيل قد تجاوزوا معد بن عدنان بكثير من الأسماء.

وأورد ابن سعد ١٩ رواية عن وفاة إبراهيم ابن النبى ﷺ، وكيف حزن الأبُ الكريم على ولده الرضيع. وليس بين تلك الروايات العديدة اختلاف سوى بعض التفاصيل التى تتسع فى بعضها وتكاد تنعدم فى بعضها. وأكثرها تفصيلاً تلك التى رواها عن سفيان بن عيينة. قال: "أخبرنا سفيان بن عُيينة عن ابن أبى حسين عن مكحول قال: دخل رسول الله ﷺ وهو معتمد على عبدالرحمن بن عوف، وإبراهيم يجود بنفسه. فلما مات دَمَعَت عينا رسول الله ﷺ، فقال له عبدالرحمن بن عوف: أىْ رسول الله! هذا الذى تنهى الناس عنه متى يَرَكَ المسلمون تبكى يبكوا! قال: فلما شريت عنه عبرتُه قال: **إنما هذا رحم، وإن من لا يرحم لا يُرحم. إنما ننهى الناس عن النياحة، وأن يندب الرجل بما ليس فيه. قال: لولا أنه وعدٌ جامع، وسبيلٌ مأتيَّة، وأن آخرنا لاحق بأوَّلنا، لوَجدْنا عليه وَجْداً غير هذا. وإنا عليه لمحزونون. تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب، وفَضْلُ رضَاعِه فى الجنة**"(٢).

هذا مشهد إنسانى نبيل حزين. فالابن الحبيب يلفظ أنفاسه الأخيرة، لكى يلحق بإخوته الذين سبقوه إلى الرفيق الأعلى. والظاهر أن النبى ﷺ كان مريضاً، ولذلك استند إلى عبدالرحمن بن عوف. ويتأثر النبى الوالد بمنظر ولده الرضيع وهو يحتضر، فتدمع عيناه. ويظن ابن عوف خطأ أن ذلك مما نهى عنه النبى، فيذكر النبى بذلك! ويعلِّمه النبى أنها دموع الحزن، وليست نياحة محرمة، فى عبارات حزينة، رائعة، معبرة.

فالتاريخ فى "الطبقات الكبرى" صورة شاملة لحياة النبى ﷺ بحلوها ومرها، ولحياة أصحابه فى السَّراء والضراء، فى تصنيف دقيق مفيد.

---

(١) الطبقات الكبرى؛ جـ ١ ص ٧٩. (٢) نفسه: جـ ١ ص ١٩٤.

● الأنموذج الثالث:

كتاب المغازى للإمام البخارى[1]:

وقد أسهم الإمام البخارى رحمه الله فى تشييد التاريخ الإسلامى بجهد وافر، فجمع ٥٦٣ خبراً وحديثاً عن المغازى – وهى الغزوات التى قام بها رسول الله ﷺ أو جيشه. وقد بدأ هذا الكتاب الواسع بخبر نقله البخارى عن ابن إسحاق قال فيه: "أول ما غزا النبى ﷺ الأبواء، ثم بُواط. ثم العُشَيرة." وهذا دليل توثيقه لشيخ كتاب السيرة الشريفة: ابن إسحاق.

ويقدم الإمام البخارى للتاريخ سجلاً كاملاً شاملاً موثقاً، لذلك الجهاد العظيم فى ذلك العصر الذهبى، عصر النبوة المحمدية، الذى انتقل بالقبائل العربية من حالة التشرذم والتناحر إلى حالة الأمة الواحدة المتحدة، الناهضة، المجاهدة فى سبيل الله. وفى "كتاب المغازى" أدق التفاصيل عن سير الصدام الكبير بين المؤمنين الموحدين، وبين أعداء التوحيد.

ويضيف الإمام أحمد بن على بن حجر العسقلانى، شارح صحيح البخارى، ثروة هائلة مدهشة من المعلومات والمعارف التاريخية والعسكرية والدينية إلى "كتاب المغازى" فيحيله إلى موسوعة تاريخية وأدبية ودينية، تمتد عبر حوالى ٤٠٠ صفحة من القطع الكبير[2].

ومن حيث الوثاقة حدِّث ولا حرج عن كتاب البخارى وكتاب ابن حجر.

فيقول ابن حجر: "اشتمل "كتاب المغازى" من الأحاديث المرفوعة وما فى

---

(١) ولد محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخارى سنة ١٩٤هـ وتوفى سنة ٢٥٦هـ.

(٢) فتح البارى بشرح صحيح البخارى؛ المطبعة السلفية؛ جـ٧ من ص ٢٧٩ :٥٢١ جـ٨، من ص ١–١٥٤.

حكمها على خمسمائة وثلاثة وستين حديثاً، المُعَلَّق منها ستة وسبعون حديثاً والباقي موصول"(١).

وشروط البخاري لصحة الحديث صارمة. وفي هذا يقول ابن حجر رحمه الله إن مدار الحديث الصحيح عند البخاري على: "الاتصال، وإتقان الرجال، وعدم العلل"(٢).

و"الاتصال" عند "مسلم" لا يتطلب اجتماع الشيخ والراوي بتلميذه إذا تعاصر المَعْنعِن ومَن عَنْعَن عنه. لكن البخاري يشترط اجتماعهما ولو مرة واحدة.

وإتقان الرجال يتطلب شهادة العلماء؛ فإذا تكلم بعضهم في الراوي ووصفوه بالضعف، فهو غير متقن. والعلماء يصنفون الرواة درجات، أرفعها: أمير المؤمنين في الحديث، وأدناها الوضَّاع.

وشرط البخاري أن يُخرج الحديث - المُتَّفق على ثقة نَقَلَته - إلى الصحابي المشهور من غير اختلاف بين الثقات الأثبَات، ويكون إسناده متصلاً غير مقطوع. وقال الحافظ أبو بكر الحازمي رحمه الله: إن شرط الصحيح أن يكون إسناده متصلاً، وأن يكون راويه مسلماً صادقاً غير مدلس ولا مختلط، متصفاً بصفات العدالة، ضابطاً، متحفظاً، سليم الذهن، قليل الوهم، سليم الاعتقاد"(٣).

مثال من صحيح البخاري:

وهذا مثال من صحيح الإمام البخاري رحمه الله.

فكم كان عدد المسلمين الذين حضروا غزوة بدر؟ يجيب على هذا الإمام البخاري رحمه الله بأربع روايات تقول إن عددهم كان: "بضعة عشر وثلاثمائة"(٤).

الأولى: عن محمود، عن وهب، عن شعبة عن أبي إسحاق عن البراء.

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، المطبعة السلفية جـ٨ ص ١٥٤.
(٢) هدى الساري؛ ص ١١.
(٣) هدى الساري؛ ص ٩.
(٤) فتح الباري ٦٤ كتاب المغازي؛ ٦ باب عدة أصحاب بدر؛ الأحاديث أرقام ٣٩٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩.

والثانية: عن عمرو بن خالد، عن زهير، عن أبى إسحاق، عن البراء، عن أصحاب محمد ﷺ.

والثالثة: عن عبدالله بن رجاء، عن إسرائيل، عن أبى إسحاق عن البراء.

والرابعة: عن عبدالله بن أبى شيبة، عن يحيى، عن سفيان، عن أبى إسحاق عن البراء.

فالخبر مصدره الصحابى الجليل البراء بن عازب، الذى كان شاهداً على الموقعة، وإن لم يشارك فى القتال لصغر سنّه. وقد أخبر أبا إسحاق عن عدد المسلمين يومئذ؛ وأخبر أبو إسحاق: شعبة فى الرواية الأولى، وزهيراً فى الرواية الثانية، وإسرائيل فى الثالثة، وسفيان فى الرابعة. وتلقى الخبر فى الرواية الأولى عن "وهب" محمود (بن غيلان)؛ وتلقاه فى الثانية عمرو بن خالد عن زهير؛ وفى الثالثة تلقاه عبد الله بن رجاء عن إسرائيل؛ وفى الرابعة تلقاه يحيى عن سفيان، ثم تلقاه عبد الله ابن أبى شيبة عن يحيى. وتلقاه البخارى عن هؤلاء الأخيرين.

بهذا المنهج اطمأن الإمام البخارى إلى أن عدد المسلمين يوم بدر بلغ "بضعة عشر وثلاثمائة"؛ المهاجرون: "نيفاً وستين، والأنصار نيفاً وأربعين ومائتين".

وربما يظن البعض أن المسألة لا تستدعى هذا التدقيق والتوثيق؛ لكن المؤرخ المسلم لا يفكر بهذه الطريقة التى تستهين بالحقيقة فى الأخبار غير المهمة، وماذا يحدث لو كان عدد المسلمين أكثر أو أقل من هذا العدد؟

إنه منهج علمى صارم يطبق على كل الأخبار بصرف النظر عن خطورة الخبر أو عدم خطورته. وهذا المنهج جزء من الإسلام نفسه الذى يقوم على الحقائق فى عقائده وشرائعه وتاريخه، ولا يتسامح مطلقاً مع الكذابين والمزيفين والمزورين فى أى مجال دينى أو علمى أو تاريخى. وهذه هى معالم الرؤية الإسلامية الموجِّهة فى كافة المجالات العلمية.

والمؤرخون المسلمون حرصوا على تطبيق منهج المحدِّثين قدر طاقتهم. وقد وجدنا أبواباً فى مؤلفاتهم يستحيل تطبيق منهج الإسناد والجرح والتعديل فيها، بسبب قدم الأحداث التاريخية وعدم وجود الرواة.

ولقد شملت كتب الجرح والتعديل آلاف الأسماء، لرجال ونساء ممن قالوا "قال رسول الله ﷺ"، وكل من روى خبراً عن الأحداث التي وقعت في عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين. وعند "الذهبي" خضع ١١٠٥٣ اسماً للجرح والتعديل(١).

الحقيقة أولاً:

ولا يلتفت المؤرخ المسلم إلى ما قد يكون في الخبر من ذم أو إساءة لهذا الزعيم أو ذاك. ومن أمثلة ذلك ما حدث في أثناء بناء مسجد الرسول ﷺ في المدينة المنورة. فيذكر ابن هشام أن عليًّا رضي الله عنه ارتجز أبياتاً امتدح فيها الذين أسهموا في البناء، وغمز الذين لم يسهموا فيه خشية الغبار؛ والظاهر أن عمار بن ياسر رضي الله عنه واصل الرجز. فمن ذلك الذي خشي الغبار؟ ابن إسحاق ذكر أنه عثمان بن عفان رضي الله عنه. لقد احترم الحقيقة على الرغم من أنها قد تسيئ إلى صحابي جليل وثالث الخلفاء الراشدين. وهذه هي الرؤية الإسلامية. لكن ابن هشام خالف أستاذه فأغفل الاسم احتراماً للخليفة الراشد الشهيد. وعثمان أكبر من أن ينال منه خبر كهذا، وهو القمة في التضحية بماله في سبيل الإسلام، فكان على ابن هشام أن يذكر الاسم دون حرج(٢).

* * *

(١) انظر: ميزان الاعتدال في نقد الرجال؛ لـ "محمد بن أحمد الذهبي"؛ دار المعرفة؛ بيروت. تحقيق محمد علي البجاوي. (دون تاريخ).

(٢) راجع سيرة ابن هشام؛ جـ ١ ص ٤٩٧.

●الأنموذج الرابع :

تاريخ الرسل والملوك لمحمد بن جرير الطبرى

هو احد كبار المؤرخين المسلمين الذين قدموا إسهامات عظيمة فى مجال التاريخ. وكتابه المسمى "تاريخ الرسل والملوك" أو "تاريخ الأمم والملوك" يُعَد أوْفَى عمل تاريخى بين مصنفات العرب، أقامه على منهج مرسوم، وساقه فى طريق استقرائى شامل، بلغت فيه الرواية مبلغها من الثقة والأمانة والإتقان. أكمل ما قام به المؤرخون قبله، كاليعقوبى والبلاذرى، والواقدى وابن سعد، ومهد السبيل لمن جاء بعده كالمسعودى وابن مسكويه وابنَ الأثير وابن خلدون"(١).

وبداية الإسهام التاريخى الحقيقى للطبرى تتمثل فى السيرة النبوية. وأما قبلها فيدخل فى العقائد جزئيًا، مثل الحديث عن خلق الله تعالى للزمان والقلم، وأحاديثه عن تاريخ الرسل الكرام عليهم السلام، معتمداً على ما جاء فى القرآن الكريم من آيات، وعلى أحاديث نبوية، وعلى روايات توراتية، وعلى ما كتبه السابقون. فالنقل هو المنهج المتبع عامة.

وقد رتب التاريخ الإسلامى من العام الأول للهجرة، إلى سنة ٣٠٢هـ(٢).

وقد كتب "تاريخ الرسل والملوك" وهو فى داره ببغداد، حيث ابتنى لنفسه داراً.. وزَّع فيها وقته بين: العبادة والقراءة، والإملاء والتصنيف"(٣). وفى بغداد –دار الخلافة – كان المؤرخ الكبير على اتصال بمصادر الأخبار وصانعى الأحداث. وتاريخه عن هذه الفترة هو الذى لا نكاد نجده عند سواه، بهذه الحيوية والدقة والموضوعية، وبهذه التفاصيل التى لا يستطيع أحد متابعتها إلا بجهد جهيد ومثابرة مع الإصرار والإيمان بقيمة العلم التاريخى وجدواه القصوى لأمته وللإنسانية جمعاء.

---

(١) من مقدمة محقق للكتاب؛ ص ٢١ (وُلد الطبرى سنة ٢٢٤– وتوفى سنة ٣١٠هـ).
(٢) راجع ص ١٥١ من المجلد العاشر. (٣) نفسه؛ ص ١٠ من المجلد الأول.

خذ مثالاً لذلك ما أورده عن خادم نصرانى شتم النبى ﷺ فى أوائل سنة ٢٨٤هـ، وشهد عليه الشهود: "فحبس، ثم اجتمع من غد هذا اليوم ناس من العامة بسبب هذا الخادم، فصاحوا بالقاسم بن عبيد الله، وطالبوه بإقامة الحد عليه بسبب ما شُهد عليه. فلما حَلَّ عليه يوم الأحد لثلاث عشرة بقيت منه (من شهر ربيع الأول) اجتمع أهل "باب الطاق" إلى قنطرة "البَرَدان" وما يليها من الأسواق. وتَدَاعَوْا، ومضوا إلى باب السلطان، فلقيهم أبو الحسين ابن الوزير، فصاحوا به، فاعلمهم أنه أنْهَى خبره إلى "المعتضد" (الخليفة)، فكذبوه، وأسمعوه ما كره، ووثبوا بأعوانه ورجاله حتى هربوا منهم، ومضوا إلى دار "المعتضد" بـ "الثريا"، فدخلوا من الباب الأول والثانى، فمُنِعُوا من الدخول، فوثبوا على من منعهم، فخرج إليهم من سألهم عن خبرهم، فأخبروه. فكتب به إلى "المعتضد"[١].

تفاصيل واسعة تعطى صورة دقيقة حية للزمان والمكان والناس، تجعلنا نعيش مع أهل "باب الطاق" ونشعر بحماسهم وغيرتهم على نبيهم ﷺ، ونلمس التراخى فى موقف السلطات، وكيف انتهى إلى الصدام.

والطبرى مؤرخ أمين، يصطنع منهج الإسناد كالمحدِّثين، ويورد الخبر من طرق عديدة، الأمر الذى قد يربك القارئ الحديث غير المتخصص[٢].

وتوثيق الخبر وبلوغ الحقيقة الموضوعية هما الغاية المرجوة. لكنه لم يكن يستطيع الإسناد دائماً. من ذلك مثلاً فى تاريخ الرسل عليهم السلام، وكذلك تاريخ فارس. وأما فترة حياته فى بغداد فكان يقول: "ورد الخبر مدينة السلام"[٣] "ولثلاث عشرة بقيت من شهر رمضان (سنة ٢٩٥ هـ) دخل بغداد رسول أبى مُضَر زيادة الله ابن الأغلب ..."[٤] فيحدد مصدر الخبر بدقة وأمانة.

ولقد استند محمد بن جرير الطبرى المؤرخ المسلم الكبير إلى القرآن الكريم

---

(١) تاريخ الرسل والملوك؛ جـ ١٠ ص ١٢٩، ١٣٠.
(٢) د. سالم خميس؛ الخلدونية فى ضوء فلسفة التاريخ؛ ص ٣٣.
(٣) نفسه؛ جـ ١٠ ص ١٢٩، ١٣٠.
(٤) نفسه؛ جـ ١٠ ص ١٣٨.

والحديث الشريف فيما كتبه عن "الزمان" و"كم قدر جميع الزمان" و"دلالة حدوث الأوقات والأزمان والليل والنهار، وهل خلق الله تعالى شيئاً قبل خَلْق الزمان والليل والنهار، وعن "فناء الزمان والليل والنهار"، وعن "ابتداء الخلق" وعن "الذى ثنى خَلْق القلم" وعن "ما خلَق الله فى كل يوم من الأيام الستة" وعن الليل والنهار أيهما خُلق قبل صاحبه" وعن: "الأخبار الواردة بأن إبليس كان له ملك السماء الدنيا والأرض وما بين ذلك" و"ذكر الخبر عن غَمْط عدو الله نعمة ربه واستكباره عليه وادعاء الربوبية" و"ذكر السبب الذى به هلك عدو الله".

وهو يورد الأخبار مسندة، وبطرق عديدة، ويستفيد من آيات القرآن الكريم التى يمكن بشىء من التأويل أن تؤيد ما ذهب إليه.

والباحث الحديث يتوقف طويلاً أمام هذه المحاولات. وبعض ما وصل إليه الطبرى مقبول بحكم الآيات القرآنية التى استند إليها، لكن كثيراً مما وصل إليه يصعب قبوله، لأن أساسه إسرائيليات، أو أخباراً مُرسلة عن بعض الصحابة الذين يستحيل أن يكونوا قد رأوا ما يُنقل عنهم أو سمعوه من النبى ﷺ.

مثال ذلك قول الطبرى: "حدثنا سَلَمة، عن ابن إسحاق، عن ليث بن أبى سُلَيْم، عن طاوس اليمانى، عن ابن عباس قال: إن عدو الله إبليس عرض نفسه على دواب الأرض: أيها يحمله حتى تدخل به الجنة حتى يكلم آدم وزوجه، فكل الدواب أبَى ذلك عليه، حتى كلم الحية، فقال لها: أمنعُك من بنى آدم، فأنت فى ذمتى إن أنت أدْخَلْتنى الجنة، فجعلته بين نابيْن من أنيابها ثم دخلت به، فكلمهما من فمها، وكانت كاسية تمشى على أربع قوائم، فأعراها الله تعالى وجعلها تمشى على بطنها، قال: يقول ابن عباس: اقتلوها حيث وجدتموها، وأخفروا ذمة عدو الله فيها"(١).

ونحن نعلم أن إبليس خُلق من نار، فكيف تستطيع الحية أن تضعه بين نابيها؟ وكيف تكلم مع الدواب؟ وبأى لغة؟ وهل كان إبليس عاجزاً عن الدخول بمفرده؟ وما مصدر ابن عباس الذى روى الخبر؟

---

(١) تاريخ الرسل والملوك؛ جـ ١ ص ١٠٧.

فالقصة توراتية معروفة. وقد نشرها مسلمة بنى إسرائيل بين المسلمين، مع كثير غيرها، ونسبت لابن عباس زوراً، لأن ابن عباس الصحابى الجليل والعالم الفذ، لا يمكن أن يروى مثل هذه الأخبار.

ولو أن الطبرى أضاف إلى "الإسناد" قليلاً من النقد، لما سطر هذا الكلام فى تاريخه. لكنه للأسف لم يفعل.

إن إسهامات الطبرى عظيمة جداً. فالطبرى رحمه الله ألّف أوفى عمل تاريخى بين مصنفات العرب ... أكمل ما قام به المؤرخون قبله كاليعقوبى والبلاذرى والواقدى وابن سعد، ومهّد السبيل لمن جاء بعده كالمسعودى وابن مسكويه وابن الأثير وابن خلدون"(١).

"وترجع قيمة هذا الكتاب إلى أنه قد استطاع أن يجمع بين دفتيه جميع المواد المودعة فى كتب الحديث والتفسير واللغة والأدب والسير والمغازى وتاريخ الأحداث والرجال، ونصوص الشعر والخطب والعهود، ونسق بينها تنسيقاً مناسباً، وعرضها عرضاً رائعاً، ناسباً كل رواية إلى صاحبها، وكل رأى إلى قائله؛ كما أنه أودع هذا الكتاب فصولاً صالحة ونتفاً متنوعة من متون الكتب التى أتت عليها عوادى الأيام، وأورد من أقوال العلماء ما لا نجده إلا فى هذا الكتاب"(٢).

وقد ظل يكتب فيه حتى سنة ٣٠٣ هـ. أى إلى ما قبل وفاته بأربع سنوات، وبذلك شمل السيرة النبوية وعهد الراشدين، والعهد الأموى كله، والعصر العباسى حتى سنة ٣٠٣ هـ. وبذلك حفظ للأمة المسلمة تاريخها على امتداد ثلاثة قرون، بالإضافة إلى الفصول العديدة التى صدَّر بها كتابه عن عصور ما قبل الإسلام.

والحق أنه يمكن اعتبار الطبرى رائداً بل مؤسساً، له فى باب التاريخ ما للشافعى من فضل فى باب أصول الفقه(٣).

---

(١) مقدمة المحقق؛ ص ٢١ .
(٢) نفسه؛ ص ٢٤ .
(٣) د. سالم خميس؛ الخلدونية فى ضوء فلسفة التاريخ؛ ص ٣٣ .

تعقيب نقدى للمنهج عند الطبرى:

وبوسعنا ان نتبين القفزة الكبيرة التى حققها ابن خلدون فى مجال علم التاريخ إذا نحن درسنا أمثلة من الأخبار التى أوردها الإمام الطبرى المؤرخ والمفسر الكبير، والمنهج النقلى البحت الذى التزم به.

فلا ريب أن الإمام أبَا جعفر محمد بن جرير الطبرى مفسِّر كبير قبل أن يكون مؤرخاً. ولهذا كان عالماً بالقرآن الكريم ملتصقاً به، معايشاً له عَيْشاً حميماً. وبذلك كان جديراً باكتشاف المنهج النقدى الذى يقوم على السُّنن الإلهية أو القوانين الثابتة التى تحكم الظواهر الطبيعية والاجتماعية. لكنه ترك هذه المهمة الكبرى لابن خلدون، فى نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع الهجرى. وتسبب ذلك فى تسرب خرافات عديدة إلى كتاب التاريخ.

ولم يتبع الطبرى منهج المحدِّثين فى الجرح والتعديل على الرغم من أنه كان محدِّثاً أيضاً، واكتفى بمنهج الإسناد. "وقد كان اعتماده هذا المنهج مثاراً للنقد عند بعض الباحثين. قالوا: إن سياقة الأخبار دون تمحيصها أمر لا يليق بالمؤرخ الناقد البصير. وإذا كانت طريقة رواية الخبر بذكر السند – ورجاله معروفون عند علماء الجرح والتعديل – تضمن صحة الأخبار وتمحيصها فى الأخبار التى وقعت فى الإسلام، فإن هذه الطريق تقصُر عن ضمان صحة ذلك فيما قبل الإسلام، وخاصة أنه قد وقع فى هذا التاريخ كثير من الأخبار الواهية، والقصص الزائفة، كالإسرائيليات، وبعض أخبار الفرس؛ كما أورد أيضاً كثيراً من الأحاديث الموضوعة، كالأحاديث الواردة فى بدء الخلق وسير الأنبياء، مما لا يرتضيه المحدِّثون"(١). ولا تقبله بدهيات العقول!

ويصف الطبرى منهجه فى التاريخ فيقول: "وليَعْلم الناظر فى كتابنا هذا أن اعتمادى فى كل ما أحضرت ذِكرَه فيه مما شرطت أنى راسمه فيه، إنما هو على ما رويتُ من الأخبار التى أنا ذاكرها فيه، والآثار التى أنا مسندها إلى رواتها فيه، دون ما أدرك

---

(١) من مقدمة كتاب الطبرى: "تاريخ الأمم والملوك" للمحقق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم؛ ص ٢٥.

بحجج العقول، واستنبط بفكر النفوس، إلا اليسير القليل منه، إذ كان العلم بما كان من أخبار الماضين، وما هو كائن من أنباء الحادثين، غير واصل إلى من لم يشاهدهم ولم يدرك زمانهم، إلا بأخبار المخبرين، ونقل الناقلين، دون الاستخراج بالعقول، والاستنباط بفكر النفوس. فما يكن فى كتابى هذا من خَبَرٍ ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه، أو يستشنعه سامعه، من أجل أنه لم يعرف له وجهاً فى الصحة، ولا معنى فى الحقيقة، فَلْيعلم أنه لم يؤتَ فى ذلك من قبلنا، وإنما أُتى من قِبَل بعض ناقليه إلينا. وإنا إنما أدَّينا ذلك على نحوٍ ما أُدِّىَ إلينا"(١).

ويشعر الطبرى بوضوح بأن كتابه يتضمن أخباراً منكرة. وهو يحمل مسئولية ذلك على من نقله إليه ! غير أن المسئولية تقع على عاتقه هو، وهى مسئولية هائلة، لأن كتابه الكبير اتخذ مصدراً لثقافة الأمة المسلمة، ومن خلاله ذاعت خرافات وإسرائيليات كثيرة، كانت سبباً فى تضليل الكثيرين من الخطباء والقراء والباحثين، ولا تزال.

وأنا لا أطالب الطبرى بأن يبلور قواعد فحص الأخبار، كما فعل الغزالى، الذى جاء بعده بحوالى مائتى سنة، أو كما فعل ابن خلدون الذى جاء بعده بحوالى خمسمائة سنة، ولكنى أرى أن أبسط ما كان يجب عليه أن يرفض الأخبار التى تتعارض مع بدهيات العقل أو مع مبادئ القرآن الكريم.

خذ مثلاً ما رواه عن "فتى موسى". قال الطبرى: "حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلَمة، قال: حدثنى محمد بن إسحاق عن الحسن بن عُمارة، عن أبيه، عن عكرمة، قال: قيل لابن عباس: لم نسمع لفتى موسى بذكر من حديث وقد كان معه ! فقال ابن عباس فيما يذكر من حديث الفتى، قال: شرب الفتى من ماء الخُلد فخلِّد، فأخذه العالم (أى الخضر عليه السلام)، فطابق به سفينة، ثم أرسله فى البحر، فإنها لتموج به إلى يوم القيامة، وذلك أنه لم يكن له أن يشرب منه، فشرب"(٢).

---

(١) تاريخ الأمم والملوك؛ ص ٧، ٨.
(٢) تاريخ الأمم والملوك؛ ص ٣٧٣.

فابن عباس رضى الله عنه هو مصدر هذه القصة. فهل يمكن لصحابى، جليل، وعالم كبير، يعرف مبادئ الإسلام، أن يتورط فى مثل هذه القصة الخرافية ؟

إن القرآن الكريم يقول ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [الرحمن: ٢٦].

ويقول أيضاً للنبى ﷺ: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

فكيف يسجل الطبرى هذا الخبر دون أن يعلق عليه بما يظهر كذبه للقارئ ؟ وإننى لا أطالب المؤرخين بإغفال الأخبار الكاذبة، ولكنى أطالبهم ببيان كذبها، بعد تسجيلها، لكيلا تضلل الأمة، وتفترى على الصحابة الأجلاء. ولن نسأل: أين ماء الخلد المزعوم؟ فى أى بحر أو نهر؟ وأين ذلك الفتى الخرافى عبر الزمان؟ لمَ لمْ يصادفه بحار أو يراه مكتشف؟! فلا حاجة بنا إلى ذلك.

إن منهج الطبرى النقلى البحت منهج قاصر. ولا ريب أن أخبار الماضين لا سبيل إلى معرفتها إلا عن طريق المخبرين، لكن التمحيص واجب، وتركه يخسف قيمة الخبر، ويورط الكاتب فى شناعات كثيرة.

لقد ترك الطبرى منهج المحدثين فى الجرح والتعديل، وقرر تعطيل حجج العقل، واستنباط الفكر، كما يقول، فكان ما كان من المناقص والعيوب فى كتابه الكبير.

ثروة هائلة:

ولكن هذا لا يعنى نفى القيمة العلمية الكبيرة لكتاب الطبرى. إنه ثروة هائلة من الأخبار، لكنها تحتاج إلى التمحيص، بتطبيق مناهج المحدثين فى الجرح والتعديل مع المنهج النقدى. وعندئذ سيتم فرز الحقائق من الأكاذيب، وسيجد القارئ طريقاً مأموناً فى تحصيل التاريخ الإسلامى، وستوضع نهايات للإسرائيليات والخزعبلات الموجودة فى كتابه.

نعم، يجب إعادة نشر "تاريخ الأمم والملوك" بعد تطبيق هذه المناهج العلمية الإسلامية. وذلك عمل صعب، يحتاج إلى خبراء كبار، وإلى صبر ومثابرة، كما يحتاج

إلى أموال عظيمة، لأن الحجم الحالى سوف يتضاعف. ولهذا أجد أن دور النشر الصغيرة التى نشرته، وأجد المحققين الذين تركوا النقد معذورين. لكن أغنياء المسلمين كثيرون، والأموال وفيرة، والإنفاق على هذا العمل واجب دينى وعلمى وثقافى مهم.

قَدْر جميع الزمان :

وها هنا مثال للإسرائيليات التى عكرت بعض صفحات "تاريخ الرسل والملوك" واقصد بذلك مسألة: قدر جميع الزمان.

أوسع الطبرى لهذه القضية مساحة كبيرة فى كتابه "تاريخ الأمم والملوك"(١). وأورد حوالى ثلاثين خبراً، كلها تتحدث عن عمر الدنيا، أو يوم القيامة، أو قَدْر جميع الزمان.

من ذلك قوله: "حدثنا ابن حُميد، قال: حدثنا يحيى بن واضح، قال: حدثنا يحيى بن يعقوب، عن حماد، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس، قال: الدنيا جمعة من جمع الآخرة، سبعة آلاف سنة، فقد مضى ستة آلاف سنة ومائتا سنة، ولياتينَّ عليها مئون من سنين، ليس عليها موحد"(٢).

فهذا قول صحابى، وليس قول النبى ﷺ. ومن البدهى أن ابن عباس لا يملك وسيلة لمعرفة مثل هذه الحقيقة إلا إن كان تلقاها عن النبى ﷺ. والخبر لا يقول إنه تلقاها عن النبى. ولا أحسب أن الصحابى الجليل عبدالله بن عباس يمكن أن يفتى فى أمر كهذا، وبخاصة إذا تذكرنا أن الله تعالى قد قال لنبيه ﷺ: ﴿**يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ**﴾ [الأحزاب: ٦٣] ويقول جلَّ شأنه: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي**﴾ [الأعراف: ١٨٧].

---

(١) المجلد الأول؛ ص ١٠-١٩.
(٢) نفسه؛ جـ ١ ص ١٠.

وسأل جبريلُ عليه السلام رسولَ الله ﷺ عنها فقال: "ما المسئول عنها باعلم من السائل"(١).

لا أدرى كيف أن الإمام، المفسر الكبير، لم يقف عند هاتين الآيتين، ومضى فى طريقه يسجل الأخبار العديدة الأخرى التى ذكرت عُمر الدنيا.

قال: "حدثنا أبو هشام، قال: حدثنا معاوية بن هشام، عن سفيان، عن الأعمش، عن أبى صالح، قال: قال كعب: الدنيا ستة آلاف سنة"(٢).

وقال: "حدثنا محمد بن سهل بن عسكر، قال: حدثنا إسماعيل ابن عبدالكريم، قال: حدثنى عبدالصمد بن معقل، أنه سمع وهباً يقول: قد خلا من الدنيا خمسة آلاف سنة وستمائة سنة، وإنى لأعرف كل زمان منها، ما كان فيه من الملوك والأنبياء. قلت لوهب: كم الدنيا؟ قال: ستة آلاف سنة"(٣).

ومعلوم أن "وهباً" من مسلمة بنى إسرائيل، وأن أخباره غالباً توراتية. فالتوراة أوردت أرقاماً محددة عن عُمر الدنيا أو عن يوم الساعة، وتواريخ هبوط آدم عليه السلام إلى الأرض، وعصر إبراهيم عليه السلام. وقد أثبت العلم الحديث أن تلك الأرقام والتواريخ خطأ. وفى هذا يقول موريس بوكاى: إن خلق العالم بحسب التقدير العبرى يحدد تقريباً بسبعة وثلاثين قرناً قبل الميلاد. فعمر العالم إذن (٣٧٠٠) سنة قبل الميلاد، يضاف إليها ١٩٩١ (حين كتب كتابه) بعده، فيصبح ٥٦٩١ سنة. وهذه الأرقام بعيدة عن الحقائق العلمية"(٤). ولم يذكر القرآن الكريم أرقاماً بالمرة، فكان ذلك دحضاً للفرية الاستشراقية بأن النبى ﷺ اقتبس القرآن من التوراة.

ويمضى المؤرخ الكبير فى إيراد الأخبار حول هذه المسألة، ثم ينتهى إلى تأييد قول ابن عباس: "إن الدنيا جمعة من جمع الآخرة سبعة آلاف سنة"(٥).

---

(١) صحيح البخارى؛ فتح البارى؛ كتاب الإيمان جـ١ ص ١١٤ – حديث رقم٣٧.
(٢) تاريخ الأمم والملوك؛ ص ١٠.
(٣) الموضع نفسه.
(٤) راجع كتابه: التوراة والإنجيل والقرآن، والعلم؛ ص ٤٧ من الترجمة العربية.
(٥) تاريخ الأمم والملوك؛ ص ١٦.

لقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ ان يقول ﴿ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ ﴾ [الأحزاب: ٦٣] كلما سئل عن الساعة. ويستحيل أن يجيب أحداً بغير هذا الجواب. وعليه لا نستطيع قبول أى خبر يزعم أنه قد خالف أمر ربه وأجاب بغير الجواب الذى أمره به. والمثير للعجب أن يقبل المفسر العملاق تلك الأخبار ولا يذكر آيات القرآن الكريم التى تكذبها.

كيف نفسر ذلك الموقف؟

فى اعتقادى أن الروايات والأخبار العديدة التى نسبت للنبى ﷺ، والتى كان مصدرها بعض أكابر الصحابة، مثل ابن عباس وعبدالله بن عمر – رضى الله عنهم – شكلت صعوبة كبيرة أمام الطبرى، فاستعظم أن يخالفها والله تعالى أعلم.

رحم الله الطبرى رحمة واسعة وجزاه خير الجزاء لما أسداه لأمته وللإنسانية من علم وثقافة.

* * *

●الأنموذج الخامس :

البداية والنهاية لابن كثير :

والأنموذج الخامس هو كتاب "البداية والنهاية " للمؤرخ الكبير والمفسر القدير أبى الفداء الحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير رحمه الله(١).

نشأ ابن كثير فى بيت علم ودين. وفى مدينة دمشق تلقى تعليمه على أيدى شيوخها الكبار. وبعد أن نضج مارس التدريس والفتوى والتأليف، وترك لنا ثروة غالية من المؤلفات، أهمها كتابه: "البداية والنهاية" فى التاريخ(٢) وكتابه "تفسير القرآن العظيم"(٣).

وقد بدأ ابن كثير كتابه "البداية والنهاية " بقصص الأنبياء وأخبار الأمم الماضية، ثم أخبار العرب فى الجاهلية. وسجل مؤرخنا الكبير سيرة رسول الله ﷺ، وأحداث عهد الراشدين رضى الله عنهم، ثم العصر الأموى، ثم العصر العباسى.

ومن البدهى أن ابن كثير كان ينقل الأخبار عن المؤرخين والمحدثين السابقين على تلك العصور. لكنه سجل أخبار عصره حتى تاريخ الانتهاء من الكتاب، قبل وفاته بقليل، بعد أن فقد بصره(٤). وهذا هو الإسهام المرموق الذى أهداه ابن كثير إلى أمته المسلمة، وهو العمل الذى يمثل أصالته، والذى يزود من جاء بعده بالحقائق عن تلك الفترة المضطربة من تاريخ أمتنا المسلمة حين واجهت غزوات المغول فى القرن الثامن الهجرى.

---

(١) ولد سنة ٧٠١ هـ وتوفى سنة ٧٧٤ هـ.

(٢) طبعته دار الحديث بالقاهرة؛ بتحقيق الأستاذ أحمد عبدالوهاب فتيح سنة ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣م فى سبعة مجلدات زاد عدد صفحاته على (٥٠٠٠) خمسة آلاف، غير مجلد خاص للفهارس فى سبعمائة صفحة.

(٣) نشرته الدار المصرية اللبنانية؛ سنة ١٤١١هـ-١٩٩١م فى أربعة مجلدات، حوالى ٢٤٠٠ صفحة.

(٤) راجع مقدمة المحقق الأستاذ أحمد عبدالوهاب فتيح.

أحداث هائلة ومنهج دقيق:

شهد ابن كثير أحداثاً هائلة على امتداد أكثر من نصف قرن، وسجلها بموضوعية ودقة وأمانة، حتى سنة ٧٦٧ هـ.

وهو يحدد يوم وقوع الحدث، والشهر، والسنة. ففي سنة ٦٩٩هـ، انهزم المسلمون أمام التتر هزيمة منكرة، يوم الأربعاء، السابع والعشرين من ربيع الأول، فالتقوا معهم، فكسروا المسلمين، وولى السلطان هارباً، فإنا لله وإنا إليه راجعون[١].

"وفي ليلة الأحد ثاني ربيع الأول، كسر المحبوسون "بحبس باب الصغير" الحَبْسَ، وخرجوا منه على حمية، وتفرقوا في البلد، وكانوا قريباً من مائتي رجل، فنهبوا ما قدروا عليه ..."[٢].

ومن الجلي أن مؤرخنا الكبير كان قريباً من الأحداث، ولولا ذلك لما استطاع أن يسجل وقت الحدث، ونتيجته، وأعداد الذين شاركوا فيه.

وإذا ورد الخبر من مصدر ما، ذَكَرَه. من ذلك قوله: "في العشر الأوسط من شهر رجب الفرد، وردت البريدية من الديار المصرية بعزل السلطان الملك الناصر حسن ابن الناصر بن قلاوون، لاختلاف الأمراء عليه، واجتماعهم على أخيه الملك الصالح"[٣].

وفي عام ٧٥٢هـ، في أثناء العشر الأخير من رجب، يومي السبت والأحد، نودي في دمشق عن النائب – نائب السلطان: "من وَجَدَ جنديًّا سكراناً فلْيزلْه عن فرسه، ولْيأخذْ ثيابه، ومن أحضره من الجند إلى دار السعادة فله خُبْزُه، ففرح الناس بذلك، واحتجز على الخمارين والعصارين، ورخصت الأعتاب، وجادت الأخباز واللحم، بعد أن كان بلغ كل رطل أربعة ونصفاً، فصار بدرهمين ونصف، وأقل"[٤].

هذا الوصف الدقيق المحدد لا يقوله إلا مشاهد، مشارك للناس في السراء

---

(١) المجلد ١٤– أخبار سنة ٦٩٩هـ – ص ٨.
(٢) نفسه؛ ص ٨.
(٣، ٤) نفسه؛ ص ٢٥٨.

والضراء. وهو وصف محايد، موضوعي، يشهد لمن أحسن بالحسنى ويشهد على من أساء بالسيئة.

ابن كثير العالم الشجاع:

وفي سنة ٧٦٧هـ، في شهر صفر، استولى الفرنج على الإسكندرية، فأصدر السلطان مرسوماً بحبس النصارى في دمشق، وأخذ ربع أموالهم لعمارة ما خُرِّب في الإسكندرية بأيدي الفرنج من أهل ملتهم. ورفض ابن كثير هذا المرسوم، وتحدث بذلك مع نائب السلطان بدمشق وقال: "هذا مما لا يسوغ شرعاً، ولا يجوز لأحد أن يفتي بهذا، ومتى كانوا باقين على الذمة، يؤدون إلينا الجزية، ملتزمين بالذلة والصغار، وأحكام الملة قائمة، لا يجوز أن يؤخذ منهم الدرهم الواحد – الفرد – فوق ما يبذلونه من الجزية"(١).

هنا اتخذ ابن كثير موقف العالم الذي يعرف الشريعة، ولا يستطيع أن يسكت على الظلم، ثم سجل الحدث في كتاب التاريخ، دون أن يعطي اهتماماً بما لذلك من آثار سيئة على سمعة الحكم السلطاني، أو عليه هو نفسه. فكما قلتُ غير مرة إن الرؤية الإسلامية المعتبرة في مجال التاريخ تحتفل بالحقائق بصرف النظر عن كل شيء آخر. وهذا مثال تطبيقي لذلك.

وبدأ ابن كثير كتابه عن "صفة خَلْق العرش والكرسي" و"اللوح المحفوظ" وخلق السماوات والأرض وما فيهن من الآيات، وخَلْق الجان، وقصة الشيطان، وخَلْق آدم عليه السلام، وقصة قابيل وهابيل .. إلخ. وكان في ذلك متبعاً لأسلافه من المؤرخين المسلمين. واستند في كتابة هذه الفصول على آيات القرآن الكريم التي تحدثت عن ذلك، وعلى أحاديث نبوية عديدة أضافت معلومات وشروحاً إلى ما ورد في القرآن الكريم.

---

(١) المجلد ١٤– أخبار سنة ٦٩٩هـ؛ ص ٣٣٦، ٣٣٧.

الإسرائيليات:

لكن ابن كثير لم يكتف بالقرآن والسُّنة، وأخذ كثيراً من الإسرائيليات؛ ولأنه اتبع منهج النقل دون فحص أو نقد للأخبار، تسربت بعض الأخطاء إلى عمله الكبير.

من ذلك ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما: أن هرَقل كتب إلى معاوية وقال: إن كان بقى فيهم شيء من النبوة فسيخبرنى عما أسالهم عنه. قال: فكتب إليه يسأله عن المجرة، وعن القوس، وعن بقعة لم تصبها الشمس إلا ساعة واحدة. قال: فلما أتى معاوية الكتاب والرسول قال: إن هذا الشيء ما كنتُ آبه له أن أسأل عنه إلى يومى هذا، من لهذا ؟ قيل: ابن عباس. فطوى معاوية كتاب هرقل، فبعث به إلى ابن عباس، فكتب إليه: أن القوس أمان لأهل الأرض من الغرق، والمجرة باب السماء الذى تنشق منه الأرض. وأما البقعة التى لم تصبها الشمس إلا ساعة من نهار: فالبحر الذى افرج عن بنى إسرائيل.

وقال ابن كثير: إن الإسناد صحيح إلى ابن عباس[1].

ونحن لو سلمنا بصحة الإسناد، فإن السؤال الذى سيفرض نفسه هو: من أين لابن عباس أن يعرف تلك المعلومات؟ ثم إن الأجوبة ليست صحيحة علميًّا. والأجوبة الصحيحة لم تكن متاحة لأحد فى ذلك الزمان. ولا يمكن أن نصدق أن ابن عباس - ذلك الصحابى الجليل- يسمح لنفسه بالحديث فى أمور كونية لا يعرف عنها شيئاً.

ومن الأخطاء التى تسربت إلى "البداية والنهاية" قصة رواها ابن كثير عن خبر أسطورى حمله إلى دمشق "رسول ملك التتار" يقول: "إن فى البلاد المتاخمة للسد أناساً أعينهم فى مناكبهم، وأفواههم فى صدورهم، يأكلون السمك. وإذا رأوا أحداً من الناس هربوا! وذكَرَ أن عندهم بذراً ينبت الغنم، يعيش الخروف منها شهرين وثلاثة، ولا يتناسل"[2].

---

(١) البداية والنهاية؛ جـ ١ ص ٣٨ .

(٢) البداية والنهاية؛ جـ ١٣ ص ١٧٨، ١٧٩ - أخبار سنة ٦٣٨هـ.

وعلماء الحديث يرفضون مثل هذا الخبر، لأنه يتعارض مع سنن الله فى خَلْقه ومع المبادئ العامة المعروفة عن الحياة البشرية والحيوانية. وابن كثير عالم كبير يعرف ذلك تمام المعرفة. فكان من البدهى أن يرفض ذلك، أو يسجله ويفنده.

وكانت هذه الأخبار المضادة لسنن الله فى خلقه عند المؤرخين هى التى أثارت غضب ابن خلدون، فأخذ ينقدها فى ضوء قوانين العمران، وهى نفسها المبادئ الحاكمة للحياة البشرية والاجتماعية.

إسهامات ابن كثير:

لكن هذه الشوائب لا يجوز أن تنسينا إسهامات ابن كثير فى مجال التاريخ. ونحن ندين له بمعرفة القرن الثامن الهجرى، وما جرى فيه فى مصر والشام خاصة، وفى العالم الإسلامى عامة. ونحن نفخر بهذا المؤرخ المسلم الدقيق، الموضوعى، الذى وضع أمام أنظارنا صورة حية، نابضة, لعصر مضطرب من تاريخ أمتنا. وقد كافأته الأمة باحتفائها بكتابه، بل بكتبه كلها، فوضعها المسلمون الموضع اللائق بها، وطبعوها، ونشروها عشرات المرات، على الرغم من اتساعها الباذخ.

* * *

● الأنموذج السادس :

كتاب "العبر" لابن خلدون :

وإسهامات ابن خلدون عديدة، فى مجالى علم الاجتماع وعلم التاريخ. وكتابه المسمى "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر" موسوعة تاريخية حافلة، صور فيها عصره صورة مدهشة فى دقتها وشمولها، فضلاً عن التاريخ الإسلامى بعصوره المختلفة السابقة على عصر ابن خلدون، مستخدماً أسفاره العديدة من المغرب إلى المشرق وإلى الأندلس(١).

أصالة ابن خلدون :

وأصالة ابن خلدون تتجلى فيما كتبه عن العصور الإسلامية السابقة على عصره، وفيما كتبه عن عصره. ذلك أنه لم يتبع منهج النقل البحت، وإنما فحص الأخبار فى ضوء قوانين العمران، ثم استبعد الأخبار التى ثبت زيفها، وكتب التاريخ المصفَّى، النقى من شوائب المبالغات والخرافات. وهذا إبداع أصيل له.

وأما تاريخ عصره فقد عرضه فى أدق وأكمل صورة ممكنة، فتحدث عن العرب المتعربة فى المغرب، وعن تاريخ البربر وقبائلهم الشهيرة، وكتب عن تاريخ الدول التى قامت فى بلاد المغرب، وأرخ للمرابطين والموحِّدين، وتوسع فى تاريخ دولة بنى حفص التى عاصرها، ومارس بعض وظائفها. وبهذا حفظ للأمة المسلمة قطعة غالية من تاريخها.

التاريخ معمل :

ومن هذا التاريخ الطويل العريض الثرى استخلص ابن خلدون المبادئ الحاكمة للظواهر الاجتماعية، فكان التاريخ عنده هو المعمل الذى فيه تجرى التجارب

---

(١) راجع كتابه: التعريف بابن خلدون؛ ص ٨٠، ٢١٦، ٢٤٦، ٣٥١.

وتستخلص النتائج. وقد امتدت قوانين العمران عنده لتشمل: قيام الدول، وتطورها، وانهيارها؛ والحياة الاقتصادية والتجارية، ومصادر الكسب والعيش، والصنائع والمهن، والعلوم والفنون التى عُرفت فى عصره، فى لوحات مشرقة تخطف الأبصار.

ولأن ابن خلدون أقام بمصر فترة طويلة، فقد حظى تاريخ تلك الفترة باهتمام المؤرخ الكبير، ووصل فى ذلك إلى أخبار الدولة المصرية والتركية إلى سنة ٧٩٧هـ. وفى هذا كله بدت أصالته الباهرة، وتمثلت إسهاماته العلمية والتاريخية الكبيرة.

تاريخ البربر:

وما كتبه ابن خلدون عن تاريخ البربر هو أقوى ما كتب أصالةً وتجديداً وطرافة: "وذلك أن معظم ما جاء فى هذا الكتاب لم ينقل من مراجع مدونة وإنما سجله ابن خلدون نفسه لأول مرة من مشاهداته فى أثناء اتصاله بمختلف قبائل البربر وتنقله بين دول المغرب"(١).

شهادة دوزى:

وكتب ابن خلدون -استناداً إلى مشاهداته وقراءاته عن دول الإسلام فى صقلية، وعن تاريخ الطوائف بالأندلس، والممالك النصرانية فى إسبانيا، وتاريخ دولة بنى الأحمر فى غرناطة. وقد نوَّه بقيمة هذه البحوث وأشاد بفضلها على علم التاريخ كثير من علماء الغرب فى العصر الحديث، ومن هؤلاء العلامة دوزى « Dozy » الذى يصف رواية ابن خلدون عن تاريخ النصارى فى إسبانيا بأنها: "منقطعة النظير، ولا يوجد فى بحوث علماء الغرب المسيحيين فى العصور الوسطى ما يستحق أن يقارن بها"(٢).

المنهج النقدى:

ويقول ابن خلدون: "إن فحُول المؤرخين فى الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام

---

(١) د. على عبدالواحد وافى؛ عبدالرحمن بن خلدون؛ ص ٢٣٥.
(٢) نفسه؛ ص ٢٣٤.

وجمعوها، . . وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وَهِمُوا فيها أو ابتدعوها . . . ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها، ولا رفضوا تُرَّهات الأحاديث ولا دفعوها. فالتحقيق قليل. وطَرْفُ التنقيح فى الغالب كليل. والغلط والوهم نسيب للأخبار وخليل".

وقد تمثل إسهامه العظيم فى تلافى هذه المناقص الخطيرة[1].

ثم ذكر المؤرخين المسلمين المتميزين: ابن إسحاق والطبرى وابن الكلبى، والواقدى، وسيف بن عمر الأسدى.

ثم ذكر مؤرخى الأقطار الذين اكتفوا بالتأريخ كل لبلده أو قطره وعصره. "ثم لم يأت من بعد هؤلاء إلا مقلد وبليد الطبع والعقل أو متبلد، ينسج على ذلك المنوال، ويحتذى منه بالمثال"[2].

التمحيص:

فما الجديد الذى يريد ابن خلدون إضافته إلى فن التاريخ؟

إنه يريد التحقيق والتمحيص للأخبار بعرضها على القوانين والسنن الحاكمة للمجتمع البشرى: "فللعمران طبائع فى أحواله، تُرجع إليها الأخبار، وتحمل عليها الروايات".

فهذا هو الإسهام العظيم لابن خلدون فى علم التاريخ: إنه منهج نقدى، علمى، قادر على تمييز الصادق من الكاذب من الأخبار. وأساس هذا المنهج وجود سنن أو قوانين حاكمة لظواهر "العمران" أو الحياة البشرية.

اما دراساته التاريخية الواسعة فكانت المجالات التى طبق فيها منهجه النقدى. وقد شمل كتابه فى التاريخ: العمران، وأخبار العرب، وأخبار العجم، والبربر، ولذلك سماه: "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر"[3].

---

(١) د. سالم خميس؛ الخلدونية فى ضوء فلسفة التاريخ؛ ص ٤١.
(٢) المقدمة؛ ص ٧، ٨.
(٣) نفسه.

ويقول ابن خلدون: "فلا تشقنَّ بما يُلقى إليك من ذلك، وتأمل الأخبار واعرضها على القوانين الصحيحة يقع لك تمحيصها باحسن وجه"(١).

ويقول ابن خلدون إن: "الأخبار، إذا اعتُمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكَّم أصول العادة، وقواعد السياسة، وطبيعة العمران، والأحوال فى الاجتماع الإنسانى، ولا قِيسَ الغائب منها بالشاهد، والحاضر بالذاهب، فربما لم يُؤمَن فيها من العثور ومزلة القدم، والحيْد عن جادة الصدق. وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وائمة النقل من المغالط فى الحكايات والوقائع، لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثًّا أو سميناً، ولم يعرضوها على أصولها .. ولا سَبَروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات"(٢).

ومن الجلى هنا أن المنهج النقدى لابن خلدون صالح للتطبيق فى مجالات التفسير، والحديث، فضلاً عن التاريخ. فالمفسرون يعتمدون على كثير من الأخبار والأحاديث النبوية (تفسير القرآن الكريم بالسنة المطهرة). ويقع لهم فى النقل ما يقع للمؤرخ، ومن ثم يلزمهم ويفيدهم المنهج النقدى كما يفيد المؤرخ.

ابن خلدون تعلم من القرآن والحديث:

والحق أن تمحيص الأخبار والأحاديث النبوية شكَّل علماً عظيماً فى الثقافة الإسلامية، هو "علم الحديث"؛ وأنا أعتقد أن ابن خلدون اقتبس منهجه النقدى من ذلك العلم. وابن خلدون أستاذ فى علوم الحديث، وقد درَّسها وعرضها فى "المقدمة" فى إيجاز مدهش. فهو يعرف منهج الإسناد ويعرف "الجرح والتعديل"، وهما المنهجان المناسبان لغربلة الأخبار وفرز الرواة؛ ولذلك يصعب القول إنه لم يتعلم منهما شيئاً، وهو الذى تلقى العلوم الإسلامية من أكابر العلماء فى عصره(٣).

وأحسب أننى أول من كشف النقاب عن هذه الحقيقة التى غابت طويلاً عن

---

(١) المقدمة؛ ص ١٥.
(٢) نفسه؛ ص ١٢.
(٣) ابن خلدون؛ التعريف بابن خلدون؛ ص ٣٠٥-٣١١.

دارسى ابن خلدون. والحقيقة أن ما صنعتُه ليس كشفاً عن سرٍّ مستور، وإنما هو تقرير لحقيقة ظاهرة، بارزة، فى سطور "المقدمة"، صرف الله تعالى عنها الدارسين، ولفتَ نظرى إليها، لتفسير العبقرية الخلدونية بردها إلى أصولها الإسلامية.

ويطبق ابن خلدون منهجه النقدى على عدد من الأخبار. من ذلك ما كتبه "المسعودى" عن الإسكندر لما صَدَّته دواب البحر عن بناء الإسكندرية، وكيف اتخذ صندوق الزجاج وغاص فيه إلى قاع البحر حتى صور تلك الدواب الشيطانية التى رآها وعمل تماثيلها من أجساد معدنية، ونصبها حذاء البنيان، ففرت تلك الدواب حين خرجت وعاينتها، وتم بناؤها، فى حكاية طويلة من أحاديث خرافية مستحيلة، من قبَل اتخاذه التابوت الزجاجى ومصادمة البحر وأمواجه بجرمه، ومن قِبَل أن الملوك لا تحمل أنفسها على مثل هذا الغرور، ومَن اعتمده منهم فقد عَرَّض نفسه للهلكة وانتقاض العقدة واجتماع الناس إلى غيره، وفى ذلك إتلافه ولا ينتظرون رجوعه من غروره ذلك طرفة عين، ومن قِبَل أن الجن لا يُعرَف لها صور ولا تماثيل تختَص بها..." وهذه كلها قادحة فى تلك الحكاية. ثم يضيف ابن خلدون حقيقة الحاجة إلى التنفس. ونفاد الهواء فى الصندوق، مما يؤدى إلى الهلاك[1].

والحقيقة الأولى، أو القانون الأول، هو أن الملوك لا يمكن أن تقوم بمثل هذه المغامرة المهلكة. والحقيقة الثانية أن الجن لا يعرف لها صور حتى يصنع لها تماثيل. والحقيقة الثالثة استحالة التنفس.

ويطبق منهجه على "البكرى": "فى بناء المدينة المسماة "ذات الأبواب"، تحيط بأكثر من ثلاثين مرحلة، وتشتمل على عشرة آلاف باب. والمدن إنما اتخذت للتحصن والاعتصام كما يأتى. وهذه خرجت عن أن يحاط بها فلا يكون فيها حصن ولا مُعتصم !! وهكذا بضربة واحدة ينسف ابن خلدون تلك الخرافة !

ومن الأمثلة التطبيقية ما ذكره "المسعودى" عن مدينة النحاس، "وأنها مدينة

---

(١) المقدمة؛ الكتاب الأول؛ ص ٣٣، ٣٤.

كل بنائها نحاس . . وانها مغلقة الأبواب، وأن الصاعد إليها من أسوارها إذا أشرف على الحائط، صفَّق ورَمَى بنفسه، فلا يرجع آخر الدهر!" .

ويعلق ابن خلدون على هذه الحكاية بقوله إنها حديث مستحيل عادة من خرافات القصاص. ولم يقف الأدلاء على خبر لتلك المدينة: "ثم إن هذه الأحوال التى ذكروا عنها كلها مستحيل عادة، مناف للأمور الطبيعية فى بناء المدن واختطاطها، وأن المعادن غاية الموجود منها أن يصرف فى الآنية والخرثى (= أثاث البيت). وأما تشييد مدينة منها فكما تراه من الاستحالة والبعد".

وتمحيص هذه الأخبار: "إنما هو بمعرفة طبائع العمران. وهو أحسن الوجوه وأوثقها فى تمحيص الأخبار وتمييز صدقها من كذبها. وهو سابق على التمحيص بتعديل الرواة. ولا يُرجع إلى تعديل الرواة حتى يُعلم –أولاً– أن ذلك الخبر فى نفسه ممكن أو ممتنع. وأما إذا كان مستحيلاً فلا فائدة للنظر فى التعديل والتجريح"(١).

وفى هذا المثال نرى معرفة ابن خلدون بوضوح ويقين للجرح والتعديل الذى يمارس فى تمحيص الأخبار عن رسول الله ﷺ. ففى أول خطوة يُطبِّق المنهج النقدى. فإذا ظهر أن الخبر ممكن فى نفسه، جاء دور التعديل والتجريح للرواة. وهذا هو ما يتبعه علماء الحديث. فإذا كان الخبر مستحيلاً فى ذاته رفضوه. وأما إذا كان ممكناً فإنهم يبحثون فى عدالة الرواة وضبطهم، وغير ذلك من شروط قبول الحديث. وهنا يظهر تأثير علوم الحديث فى المنهج النقدى عند ابن خلدون.

ونلاحظ أن الجرح والتعديل ليس قاصراً على أخبار الرسول ﷺ وحدها. وقد طبقه "الطبرى" فى "تاريخ الأمم والملوك"؛ وإن كان قد خُدع فى بعض الرواة. ونلاحظ أن المنهج النقدى عند ابن خلدون ليس قاصراً على التاريخ أو "العمران"، بل يطبق أيضاً على أخبار الرسول، وعلى أى خبر.

فالتاريخ أخبار، يرويها رواة، عن قادة وملوك وأمراء، كما أن التاريخ ينطوى على وقائع. والرواة فيهم الصادق وفيهم المتعصب الكاذب. وهذا ما يعانيه عصرنا اليوم

---

(١) المقدمة؛ الكتاب الأول؛ ص ٣٤، ٣٥ .

حيث يكتب التاريخ أناس لا يهمهم إلا مرضاة السلطة؛ فنحن بحاجة إلى الجرح والتعديل لإنقاذ الحقائق.

والسُّنة النبوية تعرضت لأكاذيب الوضاعين، فكان الجرح والتعديل هو المنهج الذى كشف ضلالاتهم. وفى السُّنة أخبار عن وقائع؛ وهذه الوقائع قد تصادم قوانين الوجود ومبادئه، وقد تصادم القرآن والسنة النبوية، فيحتاج المحدِّث إلى المنهج النقدى الذى اتبعه ابن خلدون؛ وهذا هو ما حدث مبكراً اعتباراً من القرن الثالث للهجرة.

الأخبار التى يجب تكذيبها:

وهناك أخبار يجب رفضها. وقد حدد الإمام الغزالى أنواعها الأربعة:

يقول الإمام الغزالى رحمه الله: إن من الأخبار ما يُعلم كذبه، وهى أربعة:

الأول:

"ما يُعلم خلافه بضرورة العقل، أو نظره، أو الحس والمشاهدة، أو أخبار التواتر. وبالجملة: ما خالف المعلوم بالمدارك الستة المذكورة، كمن أخبر عن الجمع بين الضدين، وإحياء الموتى فى الحال".

الثانى:

ما يخالف النص القاطع من الكتاب والسنة المتواترة وإجماع الأمة."

الثالث:

"ما صرح بتكذيبه جمع كثير يستحيل فى العادة تواطؤهم على الكذب، إذا قالوا: حضرنا معه فى ذلك الوقت فلم نجد ما حكاه من الواقعة أصلاً".

الرابع:

"ما سكت الجمع الكثير عن نقله والتحدث به مع جريان الواقعة بمشهد منهم ومع إحالة العادة السكوت عن ذكره لتوفر الدواعى على نقله، كما لو أخبر مخبر بأن أمير البلدة قتل فى السوق على ملأ من الناس، ولم يتحدث أهل السوق به، فيُقطع

بكذبه، إذ لو صدق لتوفرت الدواعى على نقله، ولأحالت العادة اختصاصه بحكايته"[1].

وإذا كان المنهج النقدى قد طُبق على عدد من المؤرخين، فإن التعديل والتجريح طبق على آلاف الرواة. والإمام الذهبى وحده فى كتابه: "ميزان الاعتدال" عدل وجرح ١١٠٥٣ من الرواة[2].

وقد تكون الأخبار التى يرويها رواة السنة عن وقائع، فيجب عندئذ أن تخضع للمنهج النقدى. مثال ذلك ما رواه نجيح – أبو معشر السِّندى الهاشمى عن سيدنا موسى – عليه السلام –: أنه مكث أربعين يوماً بعد أن كلمه الله لا يراه أحد إلا مات[3]. فهذا الخبر ينتمى إلى النوع الرابع مما يُعلم كذبه، بحسب تصنيف الإمام الغزالى الذى أوردناه سلفاً.

ومثال آخر هو حديث يَعْلَى بن إبراهيم الغَزَال الذى يزعم أن رسول الله ﷺ مرَّ بخباء فإذا بظبية مشدودة فقالت: يا رسول الله! إن هذا الأعرابى صادنى، ولى خَشفان، وتعقَّد اللبن فى أخلافى، فلا هو يدعنى فأستريح، ولا يذبحنى. فقال لها رسول الله ﷺ: إن تركتك ترجعين؟ قالت: نعم، وإلا عذبنى الله عذاب العشَّار. فأطلقها، فلم تلبث أن جاءت تلمظ، فشدها رسول الله ﷺ إلى الخباء. وجاء الأعرابى فقال: أتبيعها؟ فقال: هى لك يا رسول الله. قال زيد (بن أرقم الذى أسند الحديث إليه): أما والله لقد رأيتها تسبِّح فى البرية تقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله".

قال الذهبى عن يعلى بن إبراهيم الغَزَال: لا أعرفه. له خبر باطل عن شيخ واهٍ"[4].

والخبر لو صح لكان معجزة لرسول الله ﷺ، ولكان قد نُقل عن رواةٍ عديدين.

---

(١) الإمام أبو حامد الغزالى؛ المستصفى من علم الأصول؛ مكتبة الجندى؛ دون تاريخ؛ تحقيق محمد مصطفى أبو العلا؛ ص ١٦٦، ١٦٧.

(٢) ميزان الاعتدال؛ للذهبى؛ نشر دار المعرفة؛ بيروت؛ دون تاريخ.

(٣) ميزان الاعتدال؛ المجلد الرابع؛ رقم ٩٠١٧ ص ٢٤٦.

(٤) ميزان الاعتدال للذهبى؛ رقم ٩٨٣٣ – المجلد الرابع؛ ص٤٥٦.

لكن "يَعْلَى" تفرد به. فكان من الصنف الرابع الذى وصفه الإمام الغزالى. وطالما أنه لم يُعرف كمعجزة، فهو جدير بأن يفحص بمعايير النقد المبنية على سُنن الله فى خلقه أو قوانين "العمران" عند ابن خلدون. وعندئذ سيثبت زيفه، لأن كلام الظبية مستحيل وسلوكها كله سلوك بشرى، وقد حدثت الرسول ﷺ حديثاً بليغاً مؤثراً، ثم برت بوعدها وعادت إلى الخباء بعد إطلاقها .. إلخ. وهذا كله ضد قوانين الحياة الحيوانية المعروفة والراسخة. فقبل أن يرفض الخبر بتجريح الراوى، يجب أن يرفض بحسب أصول المنهج النقدى.

ومثله حديث أبى غليظ بن أمية أن رسول الله ﷺ رآه وهو على يده صُرد فقال: هذا أول طير صام عاشوراء[1]. قال فيه الذهبى: هذا حديث منكر. وبتطبيق المنهج النقدى، يستحيل أن يصوم الصرد، ومن ثم يستحيل أن يكون النبى ﷺ قد قال ذلك.

صفوة القول إن المنهجين يعملان فى مجال الحديث كما يعملان فى مجال التاريخ. وكل علم يستخدم أخباراً يجب أن يستفيد من المنهجين فى فحصها وتمييز الصادق من الكاذب فيها. وتفسير القرآن الكريم أهم تلك العلوم.

وقد اتضح لنا أن المنهجين قد استخدما فى مجال الحديث النبوى قبل "مقدمة" ابن خلدون بحوالى أربعة قرون. ومن المؤكد أن ابن خلدون قد استفاد من علماء الحديث مباشرة، كما استفاد فكرة السنن من القرآن الكريم. وإسهام ابن خلدون العظيم لم يأت من العدم، لأن ذلك مستحيل، كما يقول "سارتون" مؤرخ العلوم الشهير. ولا ينتقص من قيمة ابن خلدون كونه ابن الثقافة الإسلامية؛ فإنه استوعب علوم الحديث، وبلور فكرة خضوع الظواهر الاجتماعية لقوانين العمران، وبذلك كتب تاريخاً صافياً من الخرافات، مع استثناءات، قليلة فرضها المناخ الثقافى العام.

وإسهام ابن خلدون ممزوج بإسهامات العلماء المسلمين فى علوم الجرح والتعديل.

---

(١) ميزان الاعتدال للذهبى؛ رقم ٨٦٣٣ – المجلد الرابع؛ ص١٣٧.

مدة بقاء الدنيا:

وتحدث ابن خلدون فى "مقدمته" عن "مدة بقاء الدنيا". وقال إنه يصدق ما جاء عنها على لسان آل البيت، مثل جعفر الصادق، لأن: "مستندهم فيه - والله أعلم- الكشف بما كانوا عليه من الولاية. وإذا كان مثله لا يُنكر من غيرهم من الأولياء من ذويهم وأعقابهم، وقد قال ﷺ: "إن فيكم محدَّثين"، فهم أولى الناس بهذه الرتب الشريفة والكرامات الموهوبة"(١).

ولن أناقش هنا مسألة "الكشف" الذى يُنسب إلى الأولياء، فتلك قضية أخرى. ولن أعرض لفحص الأخبار التى نُسبت إلى آل البيت فى مسألة "الساعة"، ولكنى أواجه كل ذلك بحقيقة إسلامية يقينية تقول إن علم الساعة هو مما استأثر الله به، والقرآن الكريم يقول: ﴿ **يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ** ﴾ [الأحزاب: ٦٣] ويقول: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي** ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقد سأل الناس رسول الله وأعادوا السؤال عن الساعة، ومتى هى، وسأله جبريلُ - عليه السلام - عنها فقال: "ما المسئول عنها بأعلم من السائل"(٢).

ومن المثير للعجب ألا يستشهد ابن خلدون فى حديثه عن الساعة أو مدة بقاء الدنيا، بآيات القرآن الكريم التى يحفظها عن ظهر قلب؛ وبدلاً من ذلك يعتمد على بعض الإسرائيليات التى أدخلها بعض مسلمة بنى إسرائيل فى تراثنا الإسلامى، ثم يستنتج أن ما مضى من عُمر الدنيا قبل مبعث النبى بلغ (٥٠٠٠) خمسة آلاف سنة، وأن عمر الدنيا كله (٦٠٠٠) ستة آلاف سنة. وقد أثبتت الدراسات الحديثة أن ما جاء فى التوراة عن عُمر الدنيا غير صحيح(٣).

---

(١) المقدمة؛ الباب الثالث؛ الفصل رقم ٥٠ - ص ٢٩٨.

(٢) صحيح البخارى؛ فتح البارى؛ كتاب الإيمان جـ ١ ص ١١٤ - حديث رقم ٣٧.

(٣) انظر موريس بوكاى؛ القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم؛ الترجمة العربية؛ نشر دار المعارف؛ ص ٥٩.

إننى أقدر عظمة الإنجاز العلمى لابن خلدون، المؤرخ ومؤسس فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع الحديث، وأعتز به كمسلم، وأكره ان يشغب عليه أحد. لكن حين أجد عنده شيئاً يخالف القرآن الكريم، فإننى لا أستطيع أن أصمت. ونحن المسلمين ناخذ من كلام كل قائل وندع، إلا المعصوم ﷺ. وتوضيح إبداع ابن خلدون يفرض بيان إسهاماته، كما يفرض بيان إخفاقاته.

ومعلوم أن القارئ يحجب ثقته فى الكاتب إذا شعر بأنه متحيز، يبرز المزايا ويخفى العيوب والمناقص، ويمنح ثقته للنقد العلمى الذى لا يعرف التحيز أو التحيف.

وتكفى شهادة المؤرخ البريطانى الكبير توينى لإنجازات ابن خلدون وإسهاماته، وقد قال عن فلسفة التاريخ الخلدونية: "

"a philosophy of history which is undoubtedly the greatest work of its kind that has ever yet been created by any mind in any time or place"(١)

"إنها دون ريب أعظم فلسفة تاريخ من نوعها أبدعها عقل بشرى فى أى زمان أومكان."

شهادة روبرت فلينت:

ولقد نقل ساطع الحصرى عن "روبرت فلينت" تقديره العظيم لابن خلدون (على الرغم من أنه كان رجل دين ذا نزعة دينية شديدة). قال فلينت: "من وجهة علم التاريخ أو فلسفة التاريخ، يتحلى الأدب العربى باسم من ألمع الأسماء. فلا العالم الكلاسيكى فى القرون القديمة، ولا العالم المسيحى فى القرون الوسطى، يستطيع أن يقدم اسماً يضاهى فى لمعانه ذلك الاسم. إذا نظرنا إلى ابن خلدون كمؤرخ فقط، وجدنا من يتفوق عليه حتى بين كتاب العرب أنفسهم. وأما كواضع نظريات فى

(1) Encyclopedia Britannica; vol 6. p. 147 Ibn Kaldun.

التاريخ، فإنه منقطع النظير فى كل زمان ومكان، حتى ظهور "فيكو" بعده بأكثر من ثلاثمائة عام. ليس أفلاطون ولا أرسطو ولا القديس أوغسطين بأنداد له، وأما البقية فلا يستحقون حتى الذكر بجانبه".

"كان – ابن خلدون – رجلاً منقطع النظير بين أهل دينه ومعاصريه فى موضوع الفلسفة التاريخية"؛ "وكل من يقرأ مقدمته بإخلاص ونزاهة لا يستطيع إلا أن يعترف بأن حق ابن خلدون فى ادعاء الشرف – شرف التسمية باسم مؤسس علم التاريخ وفلسفة التاريخ – أقوى وأثبت من حق كل كاتب آخر، سبق فيكو"(١).

ويعلق ساطع الحصرى على تقدير "فلينت" فيقول: "يظهر من الفقرات التى نقلناها آنفاً أن روبرت فلينت يعتبر ابن خلدون متفوقاً تفوقاً أكيداً على جميع من كتب فى فلسفة التاريخ، ليس قبله فحسب، بل خلال القرون الثلاثة التى تلت وفاته أيضاً"(٢).

* * *

(١) ساطع الحصرى؛ دراسات عن مقدمة ابن خلدون؛ ص ١٧٦ .
(٢) الموضع نفسه.

● الأنموذج السابع :

تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار للشيخ عبدالرحمن الجبرتى

الجبرتى ومنهجه العلمى :

وها هو المؤرخ المصرى عبدالرحمن الجبرتى الذى أرَّخ لفترة عصيبة من تاريخ مصر، حيث غزاها المستعمرون الفرنسيون بقيادة بونابرت، وعاثوا فيها فساداً، والجبرتى عاش تلك الفترة السوداء وكان قريباً من الأحداث الدامية والمظالم المؤلمة، وعلى الرغم من ذلك، احتفظ للكلمة بقدسيتها، فلم يجرفه كره المستعمر إلى الحيف على الحقيقة فى أشد المواقف عسراً، بل كان ناقداً لكثير من التصرفات التى تحرك الحفائظ وتوغر الصدور(١).

وانتقد الجبرتى الاعتداءات التى وقعت على الأبرياء فى خضم الفوضى التى اجتاحت القاهرة فى أواخر شوال سنة ١٢١٤ هـ حين شرع الفرنسيون فى الرحيل، وأقبل المماليك والعثمانيون عائدين إلى البلاد(٢).

ويصور مظالم العثمانيين والمماليك كما صور مظالم الفرنسيين(٣).

وهو الذي اتخذ شعار: الملك يبقى على الكفر والعدل، ولا يبقى على الجور والإيمان(٤).

وقد وصف الجبرتى كتابه فقال: "ولم أقصد بجمعه خدمة ذى جاه كبير، أو طاعة وزير أو أمير. ولم أداهن فيه دولة بنفاق أو مدح أو ذم مباين للأخلاق، لميل نفسانى أو غرض جسمانى. وأنا أستغفر الله من وصفى طريقاً لم أسلكه، وتجارتى برأس مال لم أملكه."

---

(١) الجبرتى؛ تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار؛ دار الجيل؛ بيروت؛ جـ ٢ ص ٣١٩ .
(٢) نفسه؛ جـ ٢ ص ٣٢٤، ٣٢٥ .
(٣) نفسه؛ ص ٥١٠-٥١٣ .
(٤) جـ ١ ص ٢١ .

وهذا هو المؤرخ المسلم حقًا. إنه يسجل الحقائق دون نظر إلى مرضاة أحد غير الله تعالى. وهو لا يعرف النفاق، ولا يتاجر بعلمه، ولا يتقول على أحد، ولا يتحدث فى أمر لا يعرفه[1].

إسهام الجبرتى:

وكان إسهام الجبرتى الكبير هو ذلك السجل الرائع لتاريخ مصر منذ الفتح الإسلامى لها فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – سنة ٢٠هـ إلى سنة ١٢٣٦هـ.

وصور لنا الجبرتى الحياة السياسية والقوى المتحكمة فى السلطة والثروة من الباشوات الأتراك والبكوات المماليك، واثبت فى سجله مشاحناتهم وخصوماتهم وتطاحنهم واقتتالهم، والفوضى العارمة المتصلة التى سادت البلاد بسبب ثورات العساكر بعضهم ضد بعض أو ضد البكوات. وكان الشعب المصرى هو الضحية حيث كان يعمل فى الفلاحة ولا يحصل من الثمار إلا على أقل القليل.

وصور الجبرتى العادات والتقاليد التى كانت متبعة فى ذلك الوقت –أواخر القرن الثانى عشر وأوائل القرن الثالث عشر الهجرى –. من ذلك مثلاً تقاليد الأعياد. قال الجبرتى:

"وفى ثانى شهر شوال من السنة (١١٨٠هـ) ركب الأمراء إلى "قراميدان" ليهنئوا الباشا بالعيد. وكان معتاد الرسوم القديمة أن كبار الأمراء يركبون بعد الفجر من يوم العيد، وكذلك أرباب العكاكيز، فيطلعون إلى القلعة، ويمشون أمام الباشا من السراية إلى جامع الناصر بن قلاوون، فيصلون صلاة العيد، ويرجعون كذلك، ويقبلون "اتكه" ويهنئونه، وينزلون إلى بيوتهم، فيهنئ بعضهم بعضاً . . "[2].

ولا يغفل الجبرتى عن الحياة العملية والمعيشية اليومية. فيذكر مثلاً أنه فى ١٠/١٠/١٢٠٣هـ: "وصل ططرى (من التتار) وعلى يده أوامر، منها: حُسْن عيارِ

---

(١) جـ ١ ص١٢ .
(٢) تاريخ الجبرتى؛ جـ ١ ص ٣١٦ .

المعاملة من الذهب والفضة، وأن يكون عيار الذهب المصرى تسعة عشر قيراطاً، ويصرف بمائة وعشرين نصفاً، بنقص أربعة أنصاف عن الواقع فى الصرف بين الناس .. فخسر الناس حصة من أموالهم"(١).

المؤرخ الناقد:

وصور الجبرتى البذخ الشنيع والإسراف المريع فى تصرف الباشوات الأتراك. من ذلك ما أرسله إسماعيل بك من الهدايا والتحف إلى الدولة (العثمانية)، فقد "أحضر السروجية، والصواغ، والعقادين، فصنعوا ستة سروج للسلطان وأولاده، وذلك قبل موت السلطان عبدالحميد، على طريقة وضع سروج المصريين بعبايات مزركشة، وهى مع السرج والقصعة والقربوص، مرصعة بالجواهر والبروق والذهب. والركابات واللجامات والبلامات والشماريخ والسلاسل كلها من الذهب البندقى الكسر. والرأس والرشمات كلها من الحرير المصنوع بالمخيش وسلوك الذهب وشماريخ المرجان والزمرد. وجميع الشراريب من القصب المخيش، وبها تعاليق المرجان والمعادن، صناعة بديعة، وكلفة ثمينة .."(٢).

عصر الشرور والمحن:

ويقدم الجبرتى لوصف تاريخ الغزو الفرنسى لمصر سنة ١٢١٣هـ فيقول: "وهى أول سنى الملاحم العظيمة، والحوادث الجسيمة، والوقائع النازلة، والنوازل الهائلة، وتضاعف الشرور، وترادف الأمور، وتوالى المحن، واختلال الزمن، وانعكاس المطبوع، وانقلاب الموضوع، وتتابع الأهوال، واختلاف الأحوال، وفساد التدبير، وحصول التدمير، وعموم الخراب، وتواتر الأسباب، ﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ** ﴾ [هود: ١١٧](٣).

وواظب الجبرتى على تقصى الأخبار والحقائق حتى آخر يوم من أيام الاحتلال

---

(١) تاريخ الجبرتى جـ٢ ص ٨١.
(٢) نفسه؛ جـ٢ ص ٨٣.
(٣) نفسه؛ ص ١٧٩.

السوداء الدامية. وهو أصدق مؤرخ عاصر تلك الفترة الحالكة السواد من تاريخ مصر الحديث. ونحن المصريين مدينون له بالحفاظ على حقائق تلك الفترة العصيبة من تاريخ بلادنا. وما صنعه الجبرتي إسهام عظيم وأصيل بكل ما في الكلمة من المعاني. ونحن المصريين نفخر بذلك المؤرخ العظيم وبعمله العلمي الدقيق، الذي احترم فيه الرؤية الإسلامية، فكانت الحقائق دائماً بُغيته، وقد بذل كل جهد ممكن لبلوغها، في مثابرة مثير الإعجاب.

رحم الله الشيخ عبدالرحمن الجبرتي وجزاه عن أمته خير الجزاء.

* * *

موضوعية المؤرخين المسلمين
وتحيز المؤرخين النصارى

الاعتراف بفضائل المشركين:

إن المؤرخ المسلم يسجل كل ما يعرفه دون تحيز أو تزوير بُغْية تزيين صورة المسلمين. كلا، إنه يبحث عن الحقيقة، ويسجلها، دون نظر للمستفيد منها. وهذه هي الرؤية الإسلامية للعلم والمعرفة؛ وهي رؤية متحضرة راقية. وتبعاً لهذا يمكننا أن نثق في المؤرخين المسلمين، إلا فيما خُدعوا فيه نقلاً عن مصادر توراتية أو إسرائيليات.

والمدهش في موقف المؤرخين المسلمين أنهم لم يكونوا يخشون أن يكذبهم الطرف الجاهلي المعادي للإسلام أو يعارضهم بروايات مغايرة. وهذا ما افتقدناه بعد صَدْر الإسلام حين افترقت الأمة إلى شيعة وسنة ومعتزلة وخوارج ومرجئة، وظهر أثر ذلك في مؤرخي تلك الحقبة. أما في عصرنا الحديث فقد صار التاريخ مجرد دعاية.

الاعتراف بهزائم المسلمين:

والقرآن الكريم هو المثل الأعلى للمؤرخ المسلم. يقول الحق تبارك وتعالى في يوم "حُنين" ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥، ٢٦].

ففي هذه الآية الكريمة صورة دقيقة لما حدث. فقد اغتر المسلمون بكثرة عددهم الذي بلغ (١٢٠٠٠) اثني عشر ألفاً من المجاهدين. ولم تكن قبيلة هوازن لتصمد أمامهم. لكن المسلمين فوجئوا بكمين نصبتْه لهم هوازن فانهزموا مُدبرين، باستثناء النبي ﷺ وبعض الصحابة البواسل.

قال ابن سعد: "حدثنا ابنُ حُميد، قال: حدثنا سَلمة، عن ابن إسحاق، عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن عبدالرحمن بن جابر، عن أبيه، قال: لما استقبلنا وادى حُنَيْن، انحدرْنا فى واد من أودية تهامة أجوف (= متسع) حَطُوط، إنما نَنْحدر فيه انحداراً -قال: وفى غَمَاية الصبح، وكان القوم قد سبقوا إلى الوادى. فكَمنوا لنا فى شعَابه وأحْنائه ومضايقه، قد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا. فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شَدَّت علينا شَدَّةَ رجلٍ واحد. وانهزم الناس (=المسلمون) أجمعون، فانشمروا (= انفصلوا) لا يلْوى أحدٌ على أحد. وانحاز رسول الله (ذاتَ اليمين، ثم قال: أين أيها الناس! هَلُمَّ إلىَّ! أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله!.. إلا أنه بقى مع رسول الله نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته"[1]. وعاد الهاربون، وقاتلوا معهم، وانتصروا نصراً مبيناً.

وانهزمت حُنَيْن. وكانت أعجوبة. ولا تفسير لها إلا ما جاء فى آية سورة التوبة عن إنزال الملائكة جنوداً لم يرها أحد ﴿ **وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ** ﴾ [التوبة: ٢٦]

فلم يحاول المؤرخ المسلم أن يخفف الصورة المخزية للمسلمين الهاربين، وكيف أن الواحد منهم ما كان يستطيع أن يثنى بعيره عن الهرب، مما اضطر بعضهم إلى إصابة جمالهم فى الأعناق لتتوقف عن الفرار، وتمكين الرجل من العودة إلى القتال[2].

صورة رائعة لرجل مشرك

وقد عاد رسول الله ﷺ من الطائف حزيناً متعباً لرفضهم قبول الإسلام: "فقال له زيد بن حارثة: كيف ندخل عليهم، وهم أخرجوك؟ فقال: "يا زيد! إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً، وإن الله ناصرُ دينه ومظهر نبيه." ثم انتهى إلى "حراء"، فأرسل رجلاً من خزاعة إلى مطعم بن عدى يقول له: يدخل محمد فى جوارك. فقال (للرجل): نعم، ودعا بنيه فقال: تلبسوا السلاح وكونوا عند أركان البيت، فإنى قد أجَرْتُ محمداً. فدخل رسول الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام. فقام مطعم بن عدى على راحلته فنادى: يا معشر قريش! إنى أجَرْتُ محمداً،

---

(١) الطبقات الكبرى؛ المجلد الثالث؛ ص ٧٤. (٢) نفسه؛ ص ٧٤، ٧٥.

فلا يَهْجُهُ أحد منكم! فانتهى رسول الله ﷺ إلى الركن فاسْتلمه ، وصلى ركعتين وانصرف إلى بيته، ومطعم بن عدى وولده مطيفون به"(١).

فهذه صورة رائعة لرجل مشرك، شهم، شجاع، لا يتردد في إجارة النبى ﷺ، وهو يعلم ما تكنُّه له قريش من العداء الشديد. ويشرع الرجل الشجاع فوراً فى حراسة النبى، هو وأولاده، وقد تقلدوا أسلحتهم استعداداً للقتال وفاءً بعهده لرسول الله ﷺ. فالمهم عند المؤرخ المسلم هو الصدق، والتدقيق فى تسجيل الحقائق، بقطع النظر عن المستفيد منها أو المتضرر.

تصوير العدو على حقيقته:

الزبير بن باطا (اليهودى) وموقفه الشجاع:

وهذا رجل من يهود بنى قريظة. كان قد صنع معروفاً لـ "ثابت بن قيس ابن شماس" أحد الأنصار. وبعد هزيمة قريظة حكم عليهم حليفهم القديم سعد بن معاذ – رضى الله عنه – بحكم التوراة على الخونة –وهو القتل. ولما جاء الدور على ابن باطا ليُقْتل، ذكَّر " ثابت بن قيس " بما قدمه له من معروف، لكى يشفع له عند رسول الله ﷺ. ووافق الرسول على إعفائه من القتل، فقال: شيخ كبير لا أهل له ولا ولد فما يصنع بالحياة ؟ فذهب "ثابت بن قيس" مرة أخرى إلى النبى ﷺ، فأعفى امرأته من السبى وأولاده من الأسر. فقال "ابن باطا" : أهل بيت بالحجاز لا مال لهم فما بقاؤهم على ذلك؟ وذهب "ثابت" إلى النبى ﷺ ليبقى له ماله، فوافق. فسال "ابن باطا" عن زعماء اليهود، فقالوا له: قُتلوا. فقال لـ "ثابت" : أسالك يا ثابت – بيدى عندك – إلا ألحقْتنى بالقوم! فوالله ما فى العيش بعد هؤلاء من خير. فما أنا بصابر لله! بعير دلو ناضح، حتى ألْقى الأحبة! فقدمه ثابت فضربت عنقه"(٢).

هذا الخبر يصور ذلك الشيخ اليهودى فى صورة جديرة بالاحترام. فقد رفض أن يعيش وينجو من القتل على الرغم من رد النبى ﷺ امرأته وأولاده وماله عليه. وتقدم للقتل بثبات مدهش. وكان باستطاعة المؤرخ المسلم أن يترك هذا الخبر الذى يصور

---

(١) الطبقات الكبرى؛ المجلد الأول؛ ص ٢٩٦، ٢٩٧ .

(٢) ابن كثير؛ البداية والنهاية؛ جـ ٤ ص ١٢٦، ١٢٧ .

أحد أعداء الإسلام الألداء فى صورة شجاعة. وما كان أحد ليلومه. لكنها حقيقة رآها الناس بأعينهم. والمؤرخ المسلم باحث عن الحقيقة، فإذا وجدها سجلها دون تردد.

ويسجل ابن هشام اسم ألَدِّ أعداء الإسلام: أبى جهل بن هشام بن المغيرة، ضمن قائمة الكرماء الكبار من الجاهليين الذين كانوا ينحرون الإبل ليطعموا الحجيج قبل ظهور الإسلام(١). فهى حقيقة، ويجب أن تحترم وإن كانت تعلى من قدر عدو لدود للإسلام ولرسوله.

وحين غدرت قريظة برسول الله ﷺ، ورفض عمرو بن سُعْدَى، أحد كبرائها، أن يشترك فى الغدر، اعترف له المسلمون بسلامة موقفه، ولم يمسوه بسوء وقال رسول الله ﷺ فيه: "ذاك رجل نجَّاهُ الله بوفائه"(٢).

صورة سيئة لجيش مسلم:

وفي وصف وقعة النمارق ضد الفرس سنة ١٣هـ فى عهد عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – يقول ابن كثير: "وقد كانت "دومة" امراة أبى عبيد (أمير الجيش) رأت مناماً يدل على ما وقع سواء بسواء. فلما رأى المسلمون ذلك وَهَنُوا عند ذلك، ولم يكن بقى إلا الظفر بالفرس، وضعف أمرهم، وذهب ريحهم. وولوا مدبرين. وساقت الفرس خلفهم فقتلوا بشراً كثيراً، وانكشف الناس، فكان أمراً بليغاً. وجاءوا إلى الجسر، فمر بعض الناس. ثم انكسر الجسر، فتحكَّم فيمن وراءه الفرسُ فقتلوا من المسلمين. وغرق فى الفرات نحواً من أربعة آلاف، فإنا لله وإنا إليه راجعون"(٣).

فهذه صورة سيئة للجيش المسلم الذى ينكسر بتأثير رؤية رأتها امراة! لكنها الحقيقة، ولذلك سجلها المؤرخ المسلم دون محاولة للتزويق!

فإذا تحدث بعد هذا عن انتصارات رائعة للمسلمين وجب علينا أن نصدقه، لأن عدم التصديق عندئذ سيكون نوعاً من المراء السخيف!

شهادة المؤرخ توينبى:

وقد شهد المؤرخ البريطانى الشهير "توينبى" للمؤرخ المصرى الحديث الشيخ عبدالرحمن الجبرتى بأنه واحد من أشهر مؤرخى العالم العشرة(٤).

---

(١) سيرة ابن هشام؛ جـ١ ص ٦٦٤.
(٢) نفسه؛ جـ٢ ص ٢٣٨.
(٣) ابن كثير؛ البداية والنهاية؛ جـ٧ ص ٢٧.
(٤) الموسوعة العربية الميسرة: مادة التاريخ؛ ص ٤٨١؛ دار نهضة لبنان: سنة ١٤٠١ هـ – ١٩٨١ م.

شهادة محمد شفيق غربال:

ويقول محمد شفيق غربال: "وكان حياد المؤرخين العرب، وقلة تحيزهم، سمتين عامتين تثيران العجب والإعجاب.

هذا الحياد الذى يثير الإعجاب يرجع إلى تعاليم الإسلام التى تدين التحيز والكذب والتحيف الممقوت، وتفرض العدل والقسط والحق والموضوعية. ويستطيع الباحث أن يرى هذه السمات العامة فى أعمال المؤرخين المسلمين فى جميع العصور، مع استثناءات قليلة جداً.

وابتكروا لضمان الصواب فى تسجيل الأحداث تاريخها بالسنة والشهر، بل باليوم. ويصرح المؤرخ "باكل" أن هذا العمل لم يحدث فى أوربا قبل (١٩٥٧م) فى حين لم يحتفظ المؤرخون الإغريق أو الرومان أو التوراة بالتواريخ احتفاظاً واضحاً. وقال "مرجليوث" فى كتابه "دراسات عن المؤرخين العرب": إن صواب أشهر المؤرخين العرب يبلغ مرتبة سامية، ويجعل كتبهم ذات نفع عظيم للبشرية"(١).

شهادة المؤرخ عنان:

ويقول محمد عبدالله عنان: "ومما تجدر ملاحظته أن تاريخ الأندلس كتاريخ الحروب الصليبية، يمتاز فى كثير من الأحيان بتباين واضح بين الرواية الإسلامية والرواية النصرانية، وقد تتأثر هذه الرواية أو تلك بالمؤثرات القومية أو الدينية، ولكن الرواية الإسلامية فيما يتعلق بتاريخ الأندلس، تبدو على العموم أقل تحاملاً، وأكثر دقة واعتدالاً. وأما الرواية النصرانية فكثيراً ما يشوبها الإغراق فى التحامل، وينقصها الإنصاف والدقة." ثم ينقل عنان عن المستشرق الإسبانى جاينجوس قوله: "إن ماريانا وأكابر المؤرخين الإسبانيين تحدوهم عاطفة بُغْض قومى عميق، أو نزعة تعصب دينى، قد أبدوا دائماً أبلغ الاحتقار لمؤلفات العرب ... ويؤثرون أن يكتبوا تواريخهم من جانب واحد. وقد ترتب على هذا الروح الضيق الذى يطبع كتاباتهم أثر واضح. ذلك

---

(٤) الموسوعة العربية الميسرة: مادة التاريخ؛ ص ٤٨١؛ دار نهضة لبنان: سنة ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.

أن تاريخ إسبانيا فى العصور الوسطى، ما يزال – بالرغم من كل ما أفاض عليه النقدة المحدثون – معتركاً من الخرافة والمتناقضات"(١).

ويقول عنان إن تحامل بعض المؤرخين الإسبان لا يزال متحكماً حتى وقتنا هذا، وهم يؤيدون فظائع ديوان التفتيش وإحراق الكتب العربية(٢).

لقد انحدرت الأمة المسلمة وابتعدت عن المثل الأعلى فى رؤيتها الموضوعية للعلوم الاجتماعية، لكنها مع ذلك ظلت قريبة منه، وبقيت على تفوقها الأصيل فى احتضان الحقائق، وصيانتها من عدوان العواطف وحَيْف التعصب الممقوت.

شهادة الدكتور سهيل زكار :

ويقول الدكتور سهيل زكار إن "وليم" الذى كان أسقف صور والذى ألف كتاب الحروب الصليبية: "كتب بعقلية رجل الدين الكاثوليكى المتعصب، ونظر إلى الأمور من زاوية محددة، ولذلك يلاحظ أن مواده عن تاريخ الإسلام لا قيمة لها، عرضت بشكل ينم عن عداء سافر، وهى بالحقيقة ابنة عصرها، فهكذا كتب جميع اللاتين وسواهم من المسيحيين، ومع ذلك هى ليست ابنة بقعتها الجغرافية، فقد كتب "وليم" فى "صور" وكتب ابن القلانسى والعماد الأصفهانى فى دمشق وشتان ما بين نظرة التسامح والاعتدال لدى المسلمين، والإغراق بالتعصب لدى "وليم". وبناء عليه إن ما حكاه "وليم" عن أوضاع المسيحيين فى بلاد الشام محض اختلاق(٣).

ويقول د. زكار: "إن مواد "وليم الصورى" عن الأتراك السلاجقة ومعركة "مناز كرد" لا قيمة لها ألبتة، وهى أشبه بالأساطير، مع أن الرجل كان يتقن العربية، وكان تحت تصرفه مصادر عربية كثيرة"(٤).

وقال د. زكار: " أقدمت على حذف عدد من عبارات الشتم بحق النبى ﷺ

---

(١) محمد عبدالله عنان؛ دولة الإسلام فى الأندلس؛ العصر الأول – القسم الأول؛ ص ١٠ .
(٢) نفسه؛ ص ١٠، ١١ .
(٣) مقدمة د. سهيل زكار؛ لكتاب "تاريخ الحروب الصليبية – الأعمال المنجزة فيما وراء البحار" تاليف "وليم رئيس أساقفة صور (١١٣٠-١١٨٥م) جـ١ ص ٦٦ .
(٤) نفسه؛ ص ٦٦، ص ١٤٢ – الهامش، ص ١٤٣ – الهامش.

التى تبرهن على تعصب "وليم" الشديد"[1] ومن الأخطاء العديدة الفادحة فى كتاب "وليم" قوله إن هارون الرشيد هو ملك الفرس[2]!

ونحن نفخر بالتزام المؤرخين المسلمين بالرؤية الإسلامية لعلم التاريخ بوصفه سعياً علمياً نبيلاً لمعرفة الحقائق وإبرازها واحترامها، بصرف النظر عما قد تسببه من خسف لأقدار أناس نحبهم أو تمجيد لأناس نعاديهم.

تحامل المؤرخين الغربيين على الإسلام ورسوله:

وإن ما كتبه الأوربيون والأمريكيون عن الإسلام ورسوله ﷺ ليشهد على الانحطاط الرهيب الذى هوى بهم إليه التعصب. فمنذ الحروب الصليبية حتى منتصف القرن العشرين لم يستطع الغربيون إصدار كتاب يحترم الحقائق فى تاريخ الإسلام. وبعد أن شعر بعضهم بالعار، بدأت الحقيقة تطل برأسها على استحياء فى مؤلفات توماس أرنولد وزجريد هونكه، وبريفولت، وفريثيوف شون، ومجموعة العلماء الذين اهتدوا إلى الإسلام واعتنقوه ودافعوا عنه.

وبعد حادثة ١١/٩/٢٠٠١ الإرهابية، عاد التحامل والسباب فى صورة فظة مبتذلة فى مؤلفات تاريخية عديدة، ومقالات أكثر عدداً. ولا يزال الغرب مندفعاً إلى التحامل مبتعداً عن الموضوعية، باستثناء بعض الكتاب المنصفين. ومع تعاظم الهيمنة الأمريكية بلغت بهم الجرأة حد المطالبة بحذف الآيات القرآنية التى تحث على جهاد الأعداء والتى تتحدث عن غدر اليهود بالنبى والمسلمين[3].

وفى مقابل التعصب والتحامل والسباب والتشويه المتعمد للإسلام على أيدى الأوربيين، التزم المؤرخون المسلمون المنهج الإسلامى والرؤية الإسلامية فيما كتبوه عن الاستعمار الغربى والصهيونية، فلم ينحدروا إلى مستنقع التزييف والتدليس، مع

---

(١) مقدمة د. سهيل زكار؛ لكتاب "تاريخ الحروب الصليبية – الأعمال المنجزة فيما وراء البحار" تاليف "وليم رئيس أساقفة صور (١١٣٠-١١٨٥م) ص ١٤١- الهامش.

(٢) نفسه؛ ص ١٤٥.

(٣) التفاصيل فى كتابى: مرض كراهية الإسلام؛ نشر دار الجمهورية؛ سنة ٢٠٠٣ جـ١ ص ٢٣-٥١؛ جـ٢ ص ٥٧-٧٧.

وجود البواعث القوية التى تجذبهم، لأن ما صنعه المستعمرون الأوربيون بالمسلمين كان شنيعاً وبشعاً. ووراء موضوعية المؤرخ المسلم رؤية إسلامية تلتزم الحقائق ومنهج علمى يفرض الموضوعية والعدل مهما طغى العدو وتجبر، والله تعالى يقول للمسلمين ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا** ﴾ [المائدة: ٨].

ويقدّم كراتشكوفسكى - أحد كبار المستشرقين الروس- المؤرخين العرب الذين كانوا فى كثير من الأحيان جغرافيين أيضاً، ويشهد لهم بالتفوق، ويقتبس نصًّا من مؤرخ الحروب الصليبية "بروتز Prutz" **الذى قال: "ليس فى وسع الأدب الأوربى لذلك العهد أن يقدم مثالاً يفضُل مؤلفاتهم، ويكفى فى هذا الشأن تصفح ما خلفه المؤرخون العرب ومقارنة ذلك بأحسن ما أنتجه فن التاريخ فى أوربا، ليبدو لأوّل وَهْلة، ودون تردد، أين يكمن الفهم والإحساس التاريخى والوعى السياسى والذوق فى الشكل، والفن فى العرض"**[1].

* * *

(١) كراتشكوفسكى؛ تاريخ الأدب الجغرافى العربى؛ ص ٢١ .

خاتمـــة

وبعد، فقد بيَّنَت هذه الدراسة المختصرة أصالة علم التاريخ فى ثقافتنا الإسلامية وكشفت عن جذوره الضاربة فى أعماق القرآن الكريم. فكثير من الآيات تنطوى على معارف تاريخية بالأمم السابقة على الإسلام، ابتداءً من آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى، إلى أمة محمد ﷺ. ولهذا كانت الفصول الأولى فى أى كتاب للمؤلفين الرواد عن خلق آدم وزوجه، وبعدها يأتى تاريخ الرسل ثم السيرة النبوية المطهرة، ثم تاريخ الأمة المسلمة.

وقد أسهم كل مؤرخ بنصيبه الوافر بأن كتب تاريخ الأمة على امتداد الأيام التى عاشها. فورثت الأمة المسلمة ثروة تاريخية هائلة عن ماضى أيامها.

ويدهشنا المؤرخون المسلمون بحرصهم الشديد على تسجيل الحقيقة المجردة، وعلى الموضوعية الصارمة فى تحرير الأخبار. وفى تسجيل الحقائق بصرف النظر عمن يستفيد منها أو يُضار. وحين عقدنا مقارنة بينهم وبين المؤرخين النصارى هالَنَا الفرق الشاسع بين تحامل المؤرخين المسيحيين وموضوعية المؤرخين المسلمين، والحقيقة المجردة هى وسط العقد فى إكليل الغار فوق رؤوسهم.

* * *